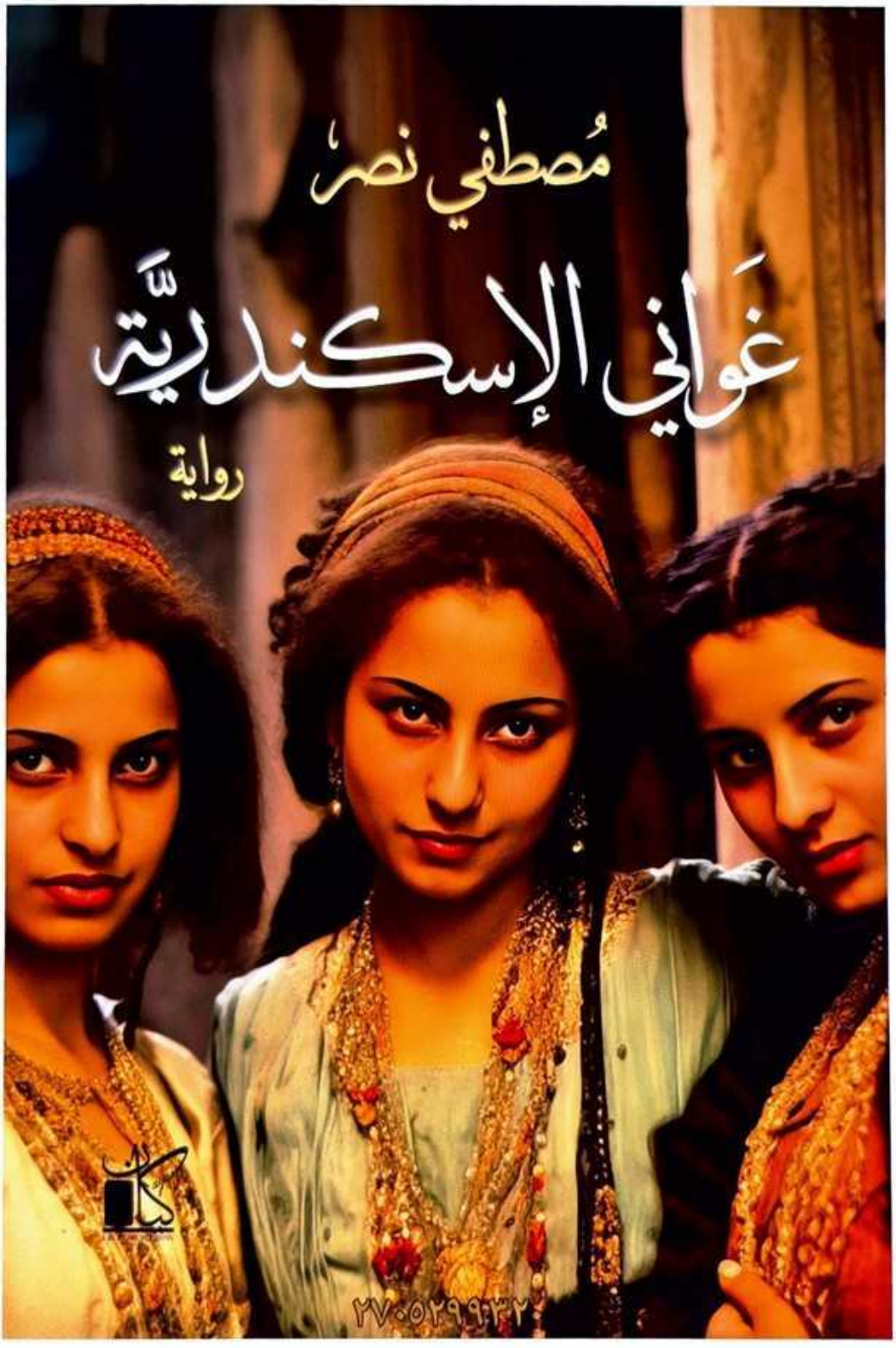
مُصطفي نصر
غَواني الإسكندريَّة
رواية
٢٧٠٥٢٩٩٣٢

نصر، مصطفى
غواني الإسكندرية : رواية / مصطفى نصر
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2024.
184 صفحة، 20 سم.
ردمك : 978-977-820-238-0
ا-القصص العربية
ب- العنوان : 813
رقم الإيداع : 28524 / 2023
الطبعة الأولى : يناير 2024.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم- محافظة الجيزة.
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين.
©جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو الكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

٢٧٠٥٢٩٩٣٢٠

يعرف أنور لينا منذ سنوات طويلة، كان صغيرًا وقت أن كانت تعمل في ملجأ بحي محرم بك، القريب من الكوبري «أبو ثلاث عيون».

أنور مسلم ولينا مسيحية من أصل يوناني، كان والد أنور موظفًا في مصلحة حكومية، يسكن قريبًا من هذا الملجأ، ماتت أم أنور وهو في السادسة من عمره، فتزوَّج والده بعد وقتٍ قصير من أخرى، لكن الزوجة الجديدة ضاقت بالولد الذي يتبوَّل على نفسه كل يومٍ مِمَّا يفسد فراشها، فثارت وسبَّت ولعنت وتركت البيت، عادت لبيت أهلها، وعندما ذهب زوجها لإعادتها لبيته، قالت في بساطة شديدة:

- لو تريدني أن أعود لبيتك، تخلَّص من ابنك.

فوقف الرجل غاضبًا:

- كيف أتخلَّص من ابني؟!

قامت زوجته منهية المناقشة:

- لن أعود لبيتك ما دام ابنك فيه.

حاول أخوات الزوجة أن يؤثروا عليها، لكنها صمَّمت على رأيها، فخرج الرجل حزينًا وحائرًا لا يعرف ماذا يفعل.

عاش في شقته حزينًا بلا زوجة، ابنه الصغير يتبوَّل على نفسه في الفراش، وهو يغيِّر له ملابسه كل صباح، عرضه على أطباء كثيرين، كلهم أكدوا له بأنها حالة نفسية، سببها موت أمه المفاجئ، وأكَّد الرجل قولهم، فقد بدأ هذا معه بعد موت أمه مباشرة.

ثم رأى الرجل لينا تنظر من الملجأ القريب من بيته، كانت ترتدي زيًّا موحدًا - ترتديه كل عاملات الملجأ -

فكَّر الرجل في هذا الحل، أن يأتي بابنه للملجأ ويتفق معهم على رعايته، وسيدفع لهم مبلغًا شهريًّا مقابل اهتمامهم به.

وبالفعل جاء الرجل وقابل المسئولين في الملجأ، قالوا له:

- الملجأ مخصَّص للأطفال الذين يتسولون أو يسرقون، أو يجمعون أعقاب السجائر، أو أطفال أتوا أفعالًا تستحق العقاب.

لكن لينا قالت:

- هناك أطفال في الملجأ، لم يفعلوا شيئًا يستحقون عليه عقابًا، مثل اللقطاء الذين يجدونهم في الشوارع.

وافقت مديرة الملجأ بعد مناقشات طويلة، ووعود وهدايا من والد الطفل أنور، على إيداع الولد في ملجئها.

يومها اختلى الرجل بلينا وهمس لها بمشكلة ابنه الحقيقية، وهي تبوله في فراشه، فرقَّت لينا للولد، ووعدت بالاهتمام به، يومها ترك لها الرجل مبلغًا من المال لتهتم بابنه، قائلًا لها:

- المهم عندي أن تحميه من أشرار الملجأ.

ضمَّت لينا أنور لصدرها في حنان، وقامت على رعايته، الولد أبيض وشكله جميل، حمته لينا من الجميع، فهي تعرف أن بعض العاملين في الملجأ يمارسون الجنس مع هؤلاء الأطفال الضعفاء، فمَن سيدافع عنهم أو يسأل عنهم؟!

يأتي أبو أنور كثيرًا في المساء حاملًا فاكهة وهدايا لابنه وللينا التي تهتم بابنه.

أحبّ أنور لينا، وتمنّى لو تصير زوجته بعد أن يكبر- رغم فارق السن الكبير بينه وبينها-

كانت تأخذه مع قليل من الأولاد وتذهب بهم إلى حدائق الشلالات القريبة من مكان الملجأ، تُجلِسهم في الشمس، قابلت هناك رشاد، ظنته أول الأمر موظفًا من موظفي البلدية الذين يعملون هناك، فقد كان أنيقًا في ملبسه، جلس بجوارها وحدّثها عن رغبته في أن يتزوجها، أجلسها لدى امرأة تبيع الشاي والقهوة والمثلجات لزبائن الحديقة.

هذه المرأة تتابع الزوار باهتمام، لو اكتشفت أن أحدهم يمتلك مالًا كثيرًا، تنحني وتحدثه:

- لو لك شوق في واحدة، موجودة عندي.

لو وافق الرجل تأتي له بامرأة من نساء الحديقة، تعرفهن المرأة جيدًا، تأخذهن لبيتها القريب «تنظفهن بالماء» وتُلبسهن ملابس من عندها وتقدمهن لزبائنها، وإذا حملت واحدة منهن، تفرح المرأة وتسعد، تأخذ البنت وتبقيها في بيتها، تقدّم الطعام إليها، فكله بحسابه، فعندما تلد، تحصل المرأة على المولود، بعد أن تدفع أموالًا قليلة للفتاة، وتحذرها من الاقتراب منها ثانية، لو فعلت وذكرت أنه كان لديها مولود، سترسل إليها ولد – من أولاد حديقة الشلالات – يدمي وجهها بموس حلاقة، يشوّه وجهها.

اكتشفت لينا أن رشاد قوّاد، ومن المقربين لهذه المرأة، يختار زبائنه من حدائق الشلالات، يغوي الجميلات لكي يعملن في الدّعارة، أنجبت لينا منه ابنة، ولدتها في بيت هذه المرأة، التي حاولت أخذ البنت والتصرف فيها، لكن لينا أصرت على أخذ ابنتها، هددتهم بأنها ستفضحهم جميعًا لو لم يأتوا بابنتها إليها.

ضمت ابنتها لصدرها وابتعدت، لا تعرف ماذا ستفعل بها، فرشاد – والدها – اختفى وهرب، موظف الصحة لم يجد حلًا سوى أن يعامل المولودة معاملة اللقطاء – الذين يجدونهم في الشوارع، يسمون كل واحد منهم، محمد عبد الله 1، محمد عبد الله 2 وهكذا، أما البنات فيختاروا لها أي اسم نسائي مناسب، لكن لا بد أن يكون اسم والدها عبد الله؛ لذا اطلقوا على ابنة لينا - نائلة بنت عبد الله - وجود نائلة جعل لينا تترك العمل بالملجأ، وتذهب للكومبكير، خشت أن ترسل المرأة ولذا إليها ليشوّه وجهها بموس حلاقة.

ابتعاد لينا عن الملجأ جعل البعض يستولي على الولد أنور ويعوّده على ممارسة الجنس، وبعد سنوات قليلة ترك أنور الملجأ وانضم للكومبكير، ليكون قريبًا من لينا.

***

يوم الأحد 10 يونيو 1882

خرج المالطي ذو الوجه الأحمر، والجسد الممتلئ من بار برشلونا بشارع السبع بنات المزدحم بالبارات، سار خطوات قليلة حتى موقف الحمير القريب من باب البار المغطى بالستائر الملونة.

يجلس الحمّارون بجوار حميرهم على أفريز الشارع، يتابعون مداخل البارات الكثيرة، ينتظرون بشوق خروج زبون.

أسرع السيد العجان نحو ذلك المالطي، حسده زملاؤه - الحمّارون - لأنه أول مكاري منهم يصل إلى زبون:

- تحت أمرك يا خواجة.

تململ الحمار، حرك رأسه في أسى وضيق، فالمالطي سوف يقصم ظهره بجسده الممتلئ الطويل، بينما الحمار في غاية الضعف والنحافة.

قال المالطي وهو يرفع ساقيه استعدادًا لركوب الحمار:

- وصلني للكومبكير.

أحسّ سيد العجان بالإحباط، فليت زبونه هذا اختار مكانًا آخر غير الكومبكير، فهو لا يحب أن يذهب إلى هناك، فزملاؤه - الحمّارون - يصفون مَن يتعامل مع هؤلاء بأوصاف سخيفة، لكن ما باليد حيلة، فهو من أول الصباح لم يتعامل مع زبون واحد، فالآن، كل من لا يجد عملًا، يشتري حِمارًا من سوق الحمير في آخر شارع السكة الجديدة، ويعمل عليه بالأجرة، فأصبح الحمّارون أكثر من الهم على القلب.

يحاول حِمَار سيد العجان أحيانًا، هز أجساد الزبائن أصحاب الأجساد الممتلئة وإرجاعهم للخلف، حتى يوقعهم على الأرض، لكي يرتاح من حملهم، لكن هذا المالطي حصيف، فهو يتشبث بظهر الحمار، فلم يستطع الحمار تحريكه وإبعاده عنه.

أحس سيد العجان بالسعادة عندما أشار المالطي إليه بالتوقُّف أمام أحد بيوت الدعارة هناك، فالطريق طويل من شارع السبع بنات حتى الكومبكير، وحماره – هو الآخر – شعر بالارتياح لنزول ذلك الجسد الممتلئ من فوق ظهره.

سيحصل سيد العجان على أجرته، حتمًا ستكون كبيرة، فالزبائن الذين يذهبون للكومبكير عادة ما يدفعون أجرة أكبر، فهم يعلمون أن الحمّارين يضيقون بالتعامل معهم.

سيجلس سيد العجان على رصيف الشارع ليتناول غداءه، وسيسمح لحماره أن يتناول غداءه هو الآخر بجواره.

***

استعدّ المالطي للدخول إلى العاهرة – صديقته التي يتعامل معها منذ شهور عِدّة، ويدفع إليها بسخاء:

قال المالطي لسيد العجان وهو يداعب خده في ودّ:

- انتظرني حتى أعود إليك.

شده سيد العجان من ملابسه قائلًا:

- لن أنتظرك، ادفع لي أجرتي في الأول، لقد نقلتك على حماري من شارع السبع بنات حتى هنا.

دفعه المالطي في صدره بعنف:

- لن أدفع لك إلا بعد أن تعود بي من حيث جئتني.

أشار سيد العجان إلى الحمّارين الكثيرين الذين يجلسون بجوار حميرهم، ويتابعون ما يحدث من بعيد:

- الحمير كثيرة أمامك، اختر عند العودة من تريد.

- لا أريد سواك، ولن يعود بي إلى شارع السبع بنات غيرك.

ضاق سيد العجان بما يحدث، وقت طويل والمالطي راكب حماره، وسيد العجان يسير خلفه.

اقترب بعض الحمّارين من المشهد، قالوا لسيد العجان:

- الحل هو أن تنتظره حتى يخرج من عند عشيقته.

قال مكاري مسن لسيد العجان:

- أعرف ما تحس به الآن، كلنا نضيق بالتعامل مع زبائن الكومبكير، لكن أكل العيش مر.

وضع سيد العجان مخلة التبن والفول لحماره وجلس بجواره على أفريز الرصيف منتظرًا في ملل خروج المالطي من عند العاهرة، ملعونة هذه المهنة.

***

دخل المالطي من الباب الضيق.

مباني الكومبكير مكونة من مربعات سكنية من دور واحد، كل مربع يسمى بلوك (1، 2، 3) وكل بلوك به ست غرف، والغرفة مكونة من حجرة نوم وصالة لزوم الانتظار، وحمام بلدي، ولا يسمح بالمبيت في الكومبكير حيث ينتهي العمل به – طبقًا لقانون الدعارة – في تمام الساعة السابعة مساء.

مباني الكومبكير مقامة على شوارع متقاطعة لا تسمح بمرور سيارات ولا دراجات من أي نوع، وغير مسموح بمرور الباعة الجائلين، وتحرس الشرطة المكان من كل المداخل سواء من المدخل الرئيسي – عند شرطة الهاميل – أو من شارع الفراهدة أو شارع السبع بنات، أو من منطقة السنوسي، فكل ما يهمهم هو راحة زبائن الكومبكير- خاصة الجنود والضباط الإنجليز وأتباعهم الأستراليون أو الهنود الذين يشتركون في الحرب مع الإنجليز.

***

تخضع جميع العاهرات للكشف الطبي الدوري الذي يتم كل شهر، وكل بلوك يخضع لإشراف رجل من القوادين وامرأة تسمى بدوية، والجميع يعملون تحت إمرة وإشراف الحاجة بهيجة - زعيمة الكومبكير - بأمر مدير الأمن الإنجليزي- والقوادون لهم شيخ يقوم بتنظيم المهام بينهم، أما بدوية فهي تخضع مباشرة للحاجة بهيجة التي تعيد توزيع الدخل من جديد مع مراعاة صاحبات المواهب من الجميلات،

بالإضافة لحجز نصيب القوادين والقوادات من المنبع.

***

سيدات كثيرات تجلسن في الطرقة، تتابعن الزبائن باهتمام وهم يدخلون، فهنّ يتشوقن لدخول زبون.

شاهدن المالطي، تنهدت إحداهن وأحست بالإحباط عندما اقترب منها، قالت في أسى، إنه المالطي عشيق لينا.

وأسرعت إحداهن لتبلغ الخبر للينا:

- عشيقك المالطي ذو الوجه الأحمر جاء من أجلك.

نزلت لينا عن سريرها في تكاسل، ذلك المالطي ليس غنيًا، فهو مجرد مساعد لدى مالطي آخر يمتلك مصنعًا

لتصنيع اللحوم - اللانشون والبسطرمة بمنطقة اللبّان، يضيف الثوم والفلفل الأحمر للحوم، يحولها لقوالب جافة، ويعلقها فوق سطح البيت الذي يمتلكه صاحب المصنع.

تفوح رائحة الثوم من جسد المالطي كله، فتدفعه لينا عنها بقدميها لاعنةً سابّةً:

- يا رجل، أحسن الاغتسال قبل أن تأتي إليّ.

فيجيبها بضحكاته العالية المجلجلة.

كثيرًا ما شدته من شعر رأسه الأبيض الناعم الكبير، وأمرته بأن يغسل يديه وباقي جسده قبل أن يتعامل معها، وكان يجيبها وهو يضحك بصوتٍ مرتفعٍ، وكثيرًا ما أهداها قوالب بسطرمة ولانشون كاملة، كانت تدعو إليها كل زميلاتها في مبنى الدّعارة.

اعتادت لينا على سبّه وركله بقدميها في كل جزءٍ من جسده، فيتقبّل منها هذا بضحكاته المجلجلة، واعتادت أيضًا على تفتيش ملابسه، وأخذ كل ما معه من مال - وهي أموال قليلة هذه المرة - الظاهر أن الرجل حرص على ألا يدخل عليها بمبالغ كبيرة، لعلمه أنها ستأخذ كل ما معه.

فتشته لينا في هذا اليوم، وأخذت منه كل شيء، قال لها:

- اتركي لي أجرة المكاري، فهو يعمل معي منذ ساعات كثيرة.

يخرج المالطي في الساعة الثانية بعد الظهر، يلوّح – لعشيقته لينا بيديه مبتسمًا ومودعًا.

ويقف سيد العجان، يخلع مخلة الطعام من رأس جماره ويحدثه في صوت خافت:

- سأعيدها إليك بعد أن أوصل هذا المالطي.

كان المالطي سعيدًا ومنتشيًا مِمّا فعله مع عشيقته، وبسبب تأثير الخمر الكثير الذي عبّه مع عشيقته البيضاء المربربة، ذات الفم الواسع والرقبة الطويلة، فحرّك ساقيه فوق جسد الجمار، وغنى أغنية أجنبية يسمعها سيد العجان لأول مرة.

قال سيد العجان له:

- طوال اليوم لم أعمل إلا معك، يعني أجرة يومي كله عندك.

ضحك المالطي، وعاد ثانية لأغنيته الأجنبية.

أحسّ سيد العجان بالراحة وهو يرى المكان الذي أخذ المالطي منه في شارع السبع بنات.

قفز المالطي بمهارة، فالخمرة التي شربها مع صديقته العاهرة ما زالت تؤثر على تصرفاته وحركاته.

مدّ سيد العجان يده، فصافحه المالطي ضاحكًا ومقهقها.

- ما معنى هذا؟

- لا أمتلك مالًا، فصديقتي العاهرة فتشتني وأخذت كل ما أملك.

أمسك سيد العجان ملابسه في عنف:

- وأجرتي، سآخذها من عاهرتك؟!

- صدقني يا حبيبي، أصرّت على أن تأخذ كل ما معي.

- أنا لم أعمل طوال يومي إلا معك، يعني لن أجد مالًا لشراء طعام لأسرتي.

اقترب المالطي من سيد العجان، ربت صدره قائلًا:

- إنني مدين لك بأجرة يوم، إذهب الآن، وتعال في الغد لأحاسبك. سأصف لك مكان مصنع اللحوم الذي أعمل به.

نهق الحمار وحرّك ساقيه في عنف، فقال سيد العجان:

- حتى الحمار غير راضٍ عن تصرفاتك.

إلتفّ سكان المنطقة حولهما، الحمّارون الكثيرون اقتربوا، سمعوا حكاية زميلهم، يوم بأكمله مع هذا المالطي من شارع السبع بنات للكومبكير، ودخل لدى صديقته في الكومبكير، وغاب عندها بالساعات، لم يعمل المكاري طوال يومه مع أحدٍ سواه.

مكاري آخر - شاب ممتلئ الجسم - لم يعجبه تصرف المالطي، فدفعه في عنف ... ثار المالطي، فما زالت آثار الخمر التي شربها في حجرة عاهرته الضيقة تجعله غير متزن، قال المكاري المسن:

- إنه سكران يتطوّح.

اهتزّ المالطي وبحث في ملابسه عن مال، ثم هلّل فرحًا:

- لقد وجدت مالًا في ملابسي.

ورفع يده بقرش صاغ صائحًا:

- ها قد وجدت هذا القرش، خذه، فهو حلال عليك.

- انت اجننت يا رجل، يوم بحاله أنا وحماري، وأجرتنا هذا القرش؟!

- صدقوني، صديقتي لم تترك لي سواه، خذه كله يا حبيبي.

دفعه سيد العجان في صدره، دافع المالطي عن نفسه، لكن المكاري - الشاب الممتلئ - شده من ملابسه ورماه على أفريز الشارع وانهالوا عليه جميعًا ضربًا بأياديهم وأرجلهم، وجد المالطي، سيد العجان نائمًا فوقه بثقله كله، فدفعه عنه في عنف، لكن سيد العجان ارتمى فوق صدره، حتى كاد المالطي يختنق، فأشهر مطواه، أخرج نصلها وطعن به سيد العجان، فصرخ وارتمى على رصيف الشارع وأخذ يئن، بينما الجماهير تجري خلف المالطي، الذي فرّ إلى أحد المنازل المجاورة، ثم دخل الزقاق الضيق المجاور لقهوة القزاز، فهو يسكن بيتًا في هذا الزقاق، كل سكانه أجانب، بعضهم مالطيون مثله، والباقي يونانيون ...

صاح في سكان البيت:

- المصريون يطاردون الأجانب.

لم يتبينوا مقصده في الأول، فهم يعيشون مع المصريين منذ سنوات طوال، بعضهم ولد في الإسكندرية، ولم يبرحها، وعلاقته حسنة مع الجميع، لكن دقات عنيفة طاردتهم، قال المالطي للمالطيين – في صوتٍ خافتٍ:

- قتلت أحدهم.

أحسّ الأجانب – سكان البيت – بالخطر، فأخرجوا أسلحتهم، ونظروا من النوافذ.

وأخذ المالطيون واليونانيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الأهلين من الأبواب والنوافذ، فسقط كثير منهم بين قتيل وجريح، فثارت نفوس الجماهير تطلب الانتقام لمواطنيهم، وتحرّكت طبقة الرعاع للاعتداء على الأوربيين عامة، فأخذوا يهجمون على كل مَن يلقونه منهم في الطرقات أو الدّكاكين ويوسعونهم ضربًا، وكان سلاحهم في هذه المعركة العصي والهراوات ليس غير، وانبثّ الرعاع في المدينة يستفزون الناس للقتال منادين: جاي يا مسلمين، يقتلون إخواننا.

حمل الحمّارون جسد سيد العجان على حماره النحيف وخلفه كل الحمير التي كانت تقف في الموقف، ووصلوا به إلى مخفر بوليس اللّبّان، ما أن نظر الشرطي لعيني سيد العجان حتى تأكّد له إنه مات، فسجّل في دفتر أحوال المخفر أول محضر ضد الأجانب: «مالطي قتل أحد أبناء الشعب».

***

علمت لينا – عشيقة المالطي – بما حدث من أنور - القوّاد الذي يتعامل معها- (يحرسها ويحميها من تطاول الزبائن عليها) قال لها:

- المالطي صديقك قتل المكاري بعد أن أوصله لمسكنه في شارع السبع بنات.

صاحت لينا:

- أنا السبب، فقد أخذت من المالطي كل ما معه.

***

تخرج لينا من مبنى الكومبكير بعد السابعة بقليل، فممنوع أن يبقوا في المبنى بعد السابعة مساءً، تسير لينا وأنور خلفها لتأخذ نصيبها من الحاجة بهيجة المشرفة الرئيسية على الكومبكير كله.

أنور هذا يكاد لا يفارقها، يظل معها طوال الوقت، يتابع زبائنها باهتمام، فقد يتطاول أحدهم عليها، فيواجهه ويمنعه من ذلك، ولا يتركها إلا بعد أن يطمئن أنها دخلت مسكنها بشارع السنوسي ونامت.

حاولت لينا أخذ ابنتها نائلة معها في الكومبكير، لكنهم رفضوا هذا بإصرار، فممنوع وجود الفتيات الصغيرات وقت العمل، فاضطرت أن تتركها لجارتها في شارع السنوسي.

سأل أنور، لينا وهما يسيران:

- ستذهبي لأخذ ابنتك الآن؟

- لا، فأنا متعبة، سأزورهم في الغد، وأدفع لهم حسابهم بالمرة.

تدفع لينا مبلغًا شهريًا لجيرانها هؤلاء نظير اهتمامهم بابنتها، زبائن لينا كثر، يطلبونها بالاسم، يقولون نريد لينا، ومن لا يعرف اسمها، يشير إلى فمها الواسع ورقبتها الطويلة، فيعرفون هناك أنه يريد لينا المميزة بذلك.

قبل أن تنعس لينا سمعت دقات مرتعشة على باب مسكنها، فقامت مضطرة:

- مَن؟

- أنا المالطي صديقك.

نزلت على الأرض وصاحت غاضبة:

- هل جننت، ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

أعاد الدّق على الباب:

- افتحي بسرعة، أرجوكي.

زفرت في ضيقٍ، واجهته غاضبة:

- قلت لك ألف مرة لا تأتي إلى مسكني، عملي في الكومبكير فقط.

أغلق الباب في حذرٍ، وهو ينظر حوله في خوفٍ:

- أعلم، لكنني مطارد، يبحثون عني في كل مكان.

ارتفع صوتها أكثر:

- يعني تريد أن تسبب لي مشاكل.

اقترب من السرير قائلًا:

- لن يفكروا في الحضور إليك.

- أرجوك ابتعد عني، فأنا متعبة، وفي حاجة للنوم.

- لا تنسي أنكِ أنتِ التي سببتِ لي كل المشاكل.

شدته من ملابسه في عنف صائحة:

- أنا قلت لك تقتل المكاري الغلبان؟!

- أخفضي صوتك، لا أريد أن يعرفوا أني هنا.

شدته من ملابسه في عنف:

- لو لم تذهب في الحال، سأنادي وأعلن أنك عندي، وسيأتي القوادون ليسلموك لمخفر بوليس اللّبّان.

سار ناحية الكنبة المجاورة للسرير، جلس عليها قائلًا:

- البوليس يبحث عني، والأهالي يريدون قتلي.

دقّت امرأة الباب سائلة:

- تعلمين بما فعله المالطي صديقك؟

ألصقت وجهها بالباب ولم ترد.

صاحت المرأة من الخارج:

- واضح إنك نائمة الآن.

أخفضت لينا صوتها:

- ابتعدت المرأة، انصرف أنت قبل أن تأتي غيرها.

- لكن ....

شدته من ملابسه وصاحت:

- اختر، ستذهب أو أصرخ وأطلب القوادين ليقبضوا عليك ويسلموك للبوليس.

دفعها في عنف، أول مرة يعاملها هكذا، فقد تعوّدت على سبّه وركله بقدميها ... صاح:

- مسكنك، هو أأمن مكان لي.

صرخت لينا، فالتفّ القوادون حول باب مسكنها، صاح أحدهم:

- هل هناك شيء يا لينا؟

تابعت المالطي مهددة، فأسرع نحو السرير، فتح النافذة وهرب منها.

***

ابتعد المالطي عن مكان الخطر، ليس في جيبه سوى قروش قليلة - جمعها من زملائه وهم يصدّون هجوم

المصريين عليهم - اشترى جالون جاز وذهب لحجرة لينا، كان هذا قبل الفجر بقليل، قامت من نومها فزعة، أخذت تسب وتلعن، فمن هذا السقيم الذي يدق بابها هذا الوقت المتأخر؟!

قالت:

- إلهي تتشل يا من تدق الباب في هذا الوقت المتأخر.

رأت المالطي أمامها، كان يخفي جالون الجاز خلف ظهره، صاحت:

- أكيد انت اتجننت.

فأسرع وألقى الجاز على صدرها وملابسها، وأشعل النار على الفور، صرخت، وعندما حاولت الفرار، دفعها إلى النار عدة مرات وأسرع للخارج.

صرخت لينا من شدة الألم، دخل القوادون، وصلوا إليها رغم النيران، نقلوها للمستشفى الأميري.

***

بيت أنور قريب من الكومبكير، زقاق ضيق، في آخره بيت تحته قهوة، هذا هو الجناح الآخر من الكومبكير.

فزبائن الكومبكير نوعان، الأكثر من يأتوا للتعامل مع النساء، وهم يخضعون للشروط التي فرضتها الشرطة، لكن هناك صنف آخر يميل للذكور، ولا يخضع لشروط الشرطة، جنود إنجليز وأستراليون وهنود يجنحون نحو التعامل مع الذكور، فخصصت الحاجّة بهيجة هذا البيت لهم.

تعرف الحاجّة أن هذا قد يُعرّضها لمشاكل مع الشرطة، لكنها قادرة على التعامل معهم، تدفع لهم مبالغ شهرية، لكي يتغاضوا عمّا تفعل، وتسمح لهم – أحيانًا - بالقبض على بعضهم، ليداروا عملهم، فتسعى جاهدة لإخراجهم من الحجز على الفور.

ينتشر هؤلاء في مداخل الكومبكير، يصطادون زبائنهم- أجانب أو مصريين- ويعرضون أنفسهم عليهم قائلين:

- ستدفع مبلغًا أقل، وهي لحظات قليلة متشابهة.

يقولون كلمات كثيرة من هذا النوع، ويستجيب البعض، ليس تأثرًا بهذه الكلمات، إنما هم في الأصل يرتاحون أكثر في التعامل مع الذكور.

تعاملت الحاجّة بهيجة مع كثير من الرجال في هذا النوع، أحدهم خرج من السجن حديثًا فلم يستطع سوى السيطرة على أولاد الشوارع الضعفاء، يأخذهم من محطة مصر ومحطة الرمل والمنشية، يغريهم بالطعام والمال، ويعلمهم السباحة في البحر، هذه السباحة تنظفهم وتعدهم للمهمة التي يريدهم لها، فيقدّمهم لمن يطلب، ثم قدّمهم للحاجّة بهيجة، فكافأته على ذلك وأرسلتهم لفرعها الجديد الذي أنشأته حديثًا، فقد خصصت بيوتًا كثيرة تتقاطع مع شروط مراقبة الشرطة، تجمع بين هذا وذاك فالدور الأرضي عادة ما يكون قهوة أو كافيه، والدور الأول العلوي مخصص للنساء، والدور التالي مخصص للذكور، لكن البيت الذي يسكنه أنور الآن خصصته الحاجّة بهيجة كله للذكور، حجرات صغيرة لا تختلف كثيرًا عن حجرات الكومبكير، معظمها تشغل لاثنين، كزوج وزوجة، والقليل منهم يعيش وحده، ويزوره مَن يتعامل معه من وقتٍ لآخر، وأنور من النوع الآخير، يسكن في حجرة من حجرات هذا البيت، يقضي معظم وقته مراقبًا ومتابعًا للينا في القسم المخصص للنساء، ويعود لهذا البيت مساءً.

أسرع أنور الخُطى بعد أن ترك لينا، فصديقه سيزوره الليلة، ولا بد أن يستعد لمقابلته، كلهم في البيت يفعلون هذا، يحاول كل منهم أن يتحدّث بطريقة النساء، وكل منهم له اسم أنثوي، فعندما يأتي صديق أنور، يتحول أنور إلى «نورة» فيضع كحلًا في عينيه، ومساحيق في وجهه، ويضع قطنًا في صدره ويشد مشد

النساء فوق القطن، ويضع باروكة شعر ملونة فوق رأسه، ويرتدي ملابس النساء التي تكشف عن ظهره الأبيض ويديه وجزءًا من صدره.

يعرف صديقه مدى تعلقه بلينا، فلا يلومه على ذلك، فصديقه متزوج وعنده أطفال، لكنه يميل أحيانًا للتعامل مع الذكور من وقت لآخر.

أسرع أنور في إعداد نفسه، خشي أن يأتي صديقه فلا يجده مستعدًا له، فيغضب منه.

سأله صديقه عن لينا، فأجابه، وارتدى صديقه ملابسه استعدادًا للانصراف، وترك له مبلغًا أكبر من كل مرة، فهو يتعامل معه طبقًا لرضائه عنه، فيدفع إليه أكثر له لو كان أداؤه أكثر جودة.

بقي أنور في الحجرة وحده، نام من التعب بزينته وملابس النساء، فسيزيل في الصباح كل هذا، ويعود لملابس الرجال.

سمع بعد الفجر بقليل أصوات عالية في البيت، ودقات عنيفة على بابه.

- إفتح يا أنور.

فُتح الباب فرأوا أمامهم امرأة ترتدي ملابس النساء، والكحل في عينيها والمساحيق في وجهها كله، قالوا:

- إلحقي، المالطي أحرق لينا صديقتك.

صرخ، ذهب إلى المستشفى الأميري، كان منظرًا عجيبًا، رجل يرتدي ملابس النساء ووجهه مزوق مثلهم، وصل للينا، كانت مشوهة، بكى من شدة ما رأى، لكنها صاحت عندما رأته أمامها:

- نائلة أمانة في رقبتك يا أنور، لا أطمئن عليها إلا معك.

ثم ماتت بعد ساعات قليلة.

***

عندما قرّر أنور أن يأخذ نائلة - ابنة لينا – لتعيش معه في بيته، وجد من الضروري أن يستأذن الرجل الذي يتعامل معه، فهو يزوره مرة كل أسبوع، وأحيانًا مرتين في الأسبوع الواحد.

تعرّف أنور على هذا الرجل في الكومبكير، رجل طويل وعريض يتعامل مع النساء والرجال سواء بسواء، ارتاح أنور معه، قال أنور له:

- استأذنك بإنني سأستضيف ابنة لينا في حجرتي هذه.

فقال الرجل:

- هي حجرتك وأنت حر فيها.

قال أنور:

- اليوم الذي ستأتي فيه لزيارتي، سأذهب بها لحجرة أخرى.

ذهب أنور إلى الأسرة التي تأوي نائلة- ابنة لينا - عندها، قال لهم:

- أنا أولى بها منكم.

أحسوا بالسعادة، فقد تحدثوا في هذا حائرين - بعد أن ماتت أمها لينا - فمن الذي سيدفع قيمة نفقاتها؟! لذا لم يتمسكوا بها.

حملها أنور وذهب بها إلى بيته، لن يتخلّى عنها.

...

ارتبطت نائلة بأنور، هو الذي يطعمها، ويغسل ملابسها، ويحنو عليها، تندهش نائلة مِمّا ترى، فأحيانا تراه ذكرًا اسمه أنور، وفي أحايين أخرى تجده يرتدي ملابس النساء وينادونه بنورة.

يعرف أنور موعد حضور زوجه إليه، فيستعد للقائه، يستحم ويضع الكحل في عينيه، ويضع باروكة على رأسه، ويرتدي ملابس النساء.

اعتادت نائلة هذا منه، فهي تعرف ما سيحدث، ستبتعد هي، تذهب لحجرة أخرى، تبحث عن صديق آخر تحدثه، فيضحكون لهذا قائلين:

- أكيد زوج أنور حضر.

كبرت نائلة في هذا البيت، تعرف أسراره، شاب يتشاجر مع آخر، يتهمه بأنه يغوي زوجه، يريد أن يأخذه منه، فيعلو صوتهما، ويحاول كلٌ منهما أن يضرب الآخر، والرجل الذي يتعاركان من أجله، حائر بينهما، وكلاهما يحاول إرضاءه.

فإذا اختلف أحدهم مع زميله لأي أمر من الأمور، يقول له:

- لن أرد عليك، وإنما سأشكوك للرجل الذي يقتنيك.

نفس القول الذي يقولونه للزوجات، يهددونها بزوجها لكي يعاقبها إذا أخطأت.

أكتوبر 1916

كبر أنور الآن، شاب شعر رأسه، يقف في الشارع الكبير مرتديًا ملابس النساء، وكاشفًا عن ظهره الأبيض العاري، يكنس أمام القهوة التي يشرف عليها الآن، يمازحه شباب المنطقة، يضربونه على ظهره العاري ويجرون.

نائلة بنت عبد الله الآن في الأربعين من عمرها، هي من أكبر أتباع الغريبي - ملك الدّعارة في مصر كلها - ورثت نائلة الدور الذي كانت تتبوأه الحاجّة بهيجة، ويقولون إنها تمتلك بيوتًا كثيرة في أحياء المنشية واللّبّان ومحطة الرمل، وتمتلك الكثير من الأفدنة، وتتحكم في عددٍ كبيرٍ من الخدم والأعوان والمساعدين، وبينها وبين بيوت الدّعارة في القاهرة والفيوم وبورسعيد وغيرها اتفاقات تجارية تتعهّد بمقتضاها أن توزّد لتلك البيوت أجمل الفتيات، وتحرّر بقيمتها وثيقة إذا لم يتم الدفع فورًا.

تسكن نائلة بيتها الجديد الذي أنشأته في محطة الرمل، يزورها أنور بملابس النساء، فقد تعوّد على ارتداء هذه الملابس، تعامله نائلة باهتمام، تعطيه مالًا كثيرًا، لكنه لا يقبل إلا القليل منه، لم تنجب نائلة أطفالًا، هي لم تتزوج، لكنها تعاملت مع رجال بعدد شعر رأسها، لو سألتها عن الرجال الذين تعاملوا معها، تقول لك:

- لا أستطيع عدهم من كثرتهم.

ولم تنجب نائلة، حتمًا هي عاقر وإلا كانت حملت وولدت لمعاشرتها كل هؤلاء الرجال.

تبحث نائلة عن الرجال الأقوياء، الكل يعرف عنها هذا، ما أن ترى الرجل - أي رجل – تتابعه باهتمام وتسأل نفسها عنه: «هل يصلح للتعامل معها أم لا؟». الذين يتعاملون معها عن قرب يعرفون أنها تذوب وتتغيّر إذا ما وجدت شابًا قويًا، فتسعى إليه، تنفق عليه بسخاء؛ لذا هي عاشرت شبابًا كُثر، أحدهم كان شابًا صغيرًا، يقرأ كثيرًا - هي لا يهمها هذا في شيء، المهم أن يكون قويًا معها- حكى لها يومًا وهو مستلق على السرير بجوارها:

- فيكي شبه كبير من أخت نابليون بونابرت.

ضحكت بصوتٍ مرتفعٍ قائلة:

- كان شكلها مثلي؟!

- لا أقصد الشكل، فأنا لم أرها، وإنما أجد رابطًا يجمع بينك وبينها.

نامت فوق صدره العاري، شمّ رائحة دخان الشيشة من فمها.

تعرف نائلة أن نابليون هذا جاء لمصر واحتلها لبعض الوقت، لكنها لا تعرف شيئًا عن أخته هذه التي يحكي عشيقها الشاب عنها، ولا تعرف نائلة إن كانت أخت نابليون قد جاءت معه إلى مصر، أو بقيت في فرنسا تنتظر عودته.

أكمل عشيق نائلة الشاب – الذي يقرأ كثيرًا – إن أخت نابليون هذه كانت نقطة ضعفه، مشكلته في حياته، عندما يعدُّ العدة للخروج إلى الحرب، يختار لها ضابطًا قويًا- يعفيه من السفر معه، يتفرّغ للتعامل معها - وعندما يعود بعد غيابه الذي يطول أحيانًا، يسألها عن أداء الضابط معها، هل كان قويًا؟!

وفي كل مرة تشكو من أداء هذا الضابط، فيختار لها ضابطًا آخر.

لكنها لم ترتح ولم تهدأ، وعذبته عندما نفوه في آخر حياته، فقد عاشت معه، ووقتها كانت تبحث أيضًا عن رجلٍ تتعامل معه.

أطباء العصر الحديث، أكدوا أن أخت نابليون، كانت مصابة بقرحة، تجعلها لا ترتوي ولا تشبع.

وعشيق نائلة بنت عبد الله – الشاب الذي يقرأ كثيرًا - أكدّ لها أنها حتمًا مصابة بهذه القرحة، وعليها أن تذهب وتتعالج منها.

يذهب هذا العشيق الشاب، يعود إلى بيته، وتبقى نائلة بنت عبد الله مع الخدم في الشقة، تبتعد عنهم بشيشتها التي لا تفارقها لا ليل ولا نهار.

تتصرف نائلة في نزق، تملأ البانيو بالماء، وتذوب داخله، وهي تشد النفس من الشيشة، ويضع الخدم أطباق الفاكهة بجوارها.

يدق باب البيت، يأتي مساعدو نائلة، يدق الخدم باب الحمام ليبلغوها بمقدم المساعدين، تزفر في ضيق، فهي لا تريد رؤية أو مقابلة أحد منهم، سيشكون إليها سوء العمل، ومشاكل لا تنتهي.

تجفف جسدها وتذهب إليهم، يقولون لها:

- تصاريح عمل الفتيات الجدد تأخرت في إدارة مراقبة العاهرات.

ما زالت نائلة تجفف تحت إبطيها من الماء:

- والعمل؟

- لا بد أن تذهبي بنفسك لمقابلة الضابط الجديد الذي عينوه لمراقبة أعمال الدعارة.

- آه، كل غربال جديد، له شدة.

انشغلت نائلة بارتداء ملابسها بينما قالت مساعدتها:

- لقد نقلوا مكتبه لقسم شرطة اللبّان، ليكون قريبًا من منطقتي الكومبكير والهماميل.

- سأذهب لمقابلته، لو أن أثقل شيء عندي مقابلة رجال الشرطة.

***

تصل عربة الحنطور الخاصة بنائلة بنت عبد الله لمبنى مخفر شرطة اللبّان، تسير نائلة بحذائها العالي الذي تدق به فوق بلاط أروقة القسم بجسدها الممتلئ والثقيل، فتحدث أصواتًا عالية تلفت نظر الجميع إليها، فيشيرون إليها من بعيد قائلين:

- نائلة بنت عبد الله، ملكة الدعارة الآن في الإسكندرية كلها.

يدلها البعض لمكتب الضابط الجديد المسئول عن قسم العاهرات، تدق باب الحجرة المغلق، فتسمع من يقول:

- ادخل.

الحجرة طويلة وواسعة، وهو يجلس في آخرها، تحت ضوء يأتي من السقف، وباقي الحجرة عاري تمامًا.

وقف الضابط جورج ميخاليدس وصافح نائلة:

- أهلًا يا حاجة.

يعرف جورج ميخاليدس أن ملكة الدعارة – سابقتها – كان اسمها الحاجة بهيجة، وكل من عملت في هذه المهنة، تطلق على نفسها لقب «الحاجة».

يقولون إن بهيجة حجت في آخر أيامها على أمل أن يغفر الله لها ما فعلته طوال سنوات عمرها.

جلست نائلة في كبرياء أمام الضابط، الذي قدم إليها سيجارة «مكن» من علبة سجائره، فقالت:

- لا، إنني أدخّن الشيشة.

فضحك بصوتٍ مرتفع، فقد ظنها تداعبه، لكنها قالت:

- إنني لا أمزح، فقد أدمنت تدخين الشيشة.

نظرت نائلة إلى بلاط الحجرة العاري، مربعات عريضة بيضاء وسوداء متداخلة، فقال جورج ميخاليدس:

- الحجرة في حاجة لفرش وأثاث كثير.

فأومأت نائلة برأسها ولم ترد، فقد وصلتها الرسالة، وسوف تحقّق له ما يريد، لاحظت نائلة وجود فتاة قابعة في ركن الحجرة الكبيرة البعيدة تتابعهما في أسى وخوف، انشغلت نائلة بمراقبتها، ثم قالت:

- جئت من أجل تصريح العمل للفتيات الجدد.

- آه.

أخرجت نائلة مظروف منتفخ من حقيبة يدها ورمته في درج المكتب الصغير العالي، فنظر إليه جورج ميخاليدس بطرف عينه، وابتسم.

ما زالت نائلة تتابع الفتاة القابعة في الركن البعيد، تنظر إليهما في ذعر وخوف:

لاحظ جورج ميخاليدس اهتمام نائلة بالبنت، فسألها:

- تعرفيها؟

- أول مرة أراها.

قال جورج في لا مبالاة:

- وجدها رجالي تتسكّع في بارات شارع البير.

أعادت نائلة النظر إلى الفتاة الخائفة المذعورة، سأل الضابط نائلة في صوت خافت:

- تحتاجينها؟

مطّت شفتيها، فصاح بالبنت بلغة آمرة:

- اقتربي يا بنت.

فردت في صوت خائف مرتعش:

- أنا؟!

فصاح بها:

- اقتربي هنا.

انتفضت البنت واقفةً، واقتربت منهما، بدا واضحًا آثار الضرب على وجهها وذراعيها العاريين، ابتسمت نائلة لها قائلة:

- ما اسمك يا حبيبتي؟

قالت في صوت خافت مرتعش:

- الظرمة.

نظرت نائلة إلى جورج ميخاليدس لتستوضح الأمر منه، فقال:

- اسمها الطَّرمة.

نظرت نائلة إليها متسائلة:

- هذا هو اسمك؟

ترك جورج ميخاليدس القلم الذي كان يوقّع به على تصاريح عمل العاهرات وقال لنائلة:

- ليس لها اسم سواه، وقد بحثنا فلم نجد لها أي أوراق رسمية، لا شهادة ميلاد ولا أي مستندات أخرى.

قامت نائلة بنت عبد الله، ورفعت وجه الفتاة، ثم قالت لجورج:

- وجهها جميل، خسارة في المرمطة.

- ستأخذينها للكومبكير؟

- لا، أريدها أن تخدمني في بيتي.

قبل أن تخرج من حجرة جورج ميخاليدس تسلّمت كل تصاريح العمل للفتيات الجدد، وقالت لجورج ميخاليدس:

- توضيب حجرتك، وكل حجرات مخفر شرطة اللّبّان على حسابي، هدية مني، فنحن لا ننسى أصدقاءنا.

***

ظلّ سائق العربة الحنطور واقفًا في مواجهة باب مخفر شرطة اللّبّان، في انتظار سيدته نائلة، وعندما رآها آتية وخلفها فتاة متسخة الثياب، قفز بمهارة على الأرض مرحبًا بها- وهو يتابع الفتاة في دهشة، فهي تشبه كثيرًا الفتيات اللائي يتسوّلن في الطرقات بملابسهن المتسخة والمهلهلة.

جلست نائلة فوق مقعد العربة الكبير، بينما تجلس الطَّرمة في مواجهتها، وطرقع العربجي بكرباجة قريبًا من أذني الحصان ليتحرك.

دخلت نائلة مدخل بيتها الواسع القريب من مسجد القائد إبراهيم، وتبعتها الفتاة الصغيرة ... الطَّرمة.

عندما تدخل نائلة الشقة، تُحدث ضجة وأصواتًا عالية، والكل يجري نحوها ملبيًا نداءها، أشارت لخدمها أن يضعوا هذه الفتاة في البانيو، ويطلقون عليها الماء الساخن والصابون حتى تفقد كثيرًا من وزنها، قالت:

- أنقعوها.

ثم أكملت في حدة:

- أريدها أن تبرق.

لا تعرف الطَّرمة اسمًا سوى اسمها هذا، يقول البعض إن أمها كانت من فتيات الشوارع اللائي يعشن في حدائق محطة مصر.

مهندس زراعي جاءت في رأسه فكرة، أن يحوّل حدائق محطة مصر المتسعة إلى دوائر، كل دائرة تحاط بشجيرات عالية بحيث لا يرى المارة ما يحدث داخل هذه الدوائر المغلقة.

وكبرت البنت نعمة، هي قصيرة، طولها قريب من طول الأقزام، لا تعرف لها أبًا أو أمًا، ولدتها أمها في هذه الحديقة، فتولّت أمرها امرأة، تحرص على متابعة بطون فتيات الشوارع، وعندما تلاحظ كبر بطن واحدة منهن، تحس أن الفرج قد جاءها، فتتقرب منها، وتدعوها لبيتها القريب من حدائق محطة مصر، ترعاها حتى تلد، ثم تأخذ منها وليدها، فهو ثروة لهذه المرأة، تبيعه للأسر التي في حاجة لأطفال، أو تؤجّره للمتسولين الكثيرين في منطقة محطة مصر.

كانت نعمة يغمى عليها كل يوم، فيحملها شاب من أولاد الشوارع الذين يعيشون في حدائق محطة مصر، ويدخل بها دائرة من الدوائر المغلقة، ويتعامل معها بحرية، كل يوم تتقرّب من شابٌ وتتظاهر بالإغماء من أجله.

فكرت نعمة ذات مرة أن تعد وتحصي عدد من تعاملت معهم من أولاد الشوارع، ففوجئت بشباب لم يقتربوا منها، فذهبت هي إليهم وعرضت نفسها عليهم، أرادت أن تكمل بهم العدد.

أنجبت نعمة بنتًا شديدة الجمال، أطلقت عليها في الأول اسم جمالات، اندهشت المرأة التي ولدتها، كيف لهذه القصيرة أن تأتي بفتاة بهذا الحسن النادر، فكرت نعمة كثيرًا في أمرها:

ترى من يكون والد هذه الفتاة، فالكل تعامل معها، لكنها لا بد أن تعرف والد ابنتها، ولن تصل إليه إلا عن طريق الشبه؛ لذا تقربت من شابٌ طويلٍ وأشقرَ ووسيمٍ، قالت له:

- ابنتي جمالات هي لا شك ابنتك، فهي قريبة الشبه منك.

فدفعها في وجهها لتبتعد عنه.

عملت البنت جمالات أعمالًا كثيرة، فكانت تمسح بلاط البيوت القريبة من حدائق محطة مصر بالأجر، ووقعت ذات مرة، فانزلقت على البلاط العاري، الوقعة أصابت كل أسنانها، فأصبحت طرمة، ظلّت لسنوات بلا أسنان، وفجأة ظهرت الأسنان من جديد، لكن ظلّ اسم الطّرمة ملتصقًا بها.

واختفت نعمة فجأة، لا تدري الطّرمة أين ذهبت أمها، يقولون إنها سافرت إلى الشام، وإنها تمارس الدّعارة هناك في لبنان، ويقول البعض إنهم قتلوها في الطريق ودفنوها في صحراء لا يعرف أحد مكانها.

***

يتحسّس جورج ميخاليدس المظروف الذي ألقته نائلة بنت عبد الله في درج مكتبه، يبدو أن وظيفته الجديدة - كمراقب للعاهرات – رزقها واسع.

هو يعيش الآن وحده في حجرة وحيدة فوق سطح بيت كبير يشبه الوكالة لكبر حجمه، خلف محطة القطار مباشرة، شارع يشتهر بتجارة الأثاث والتحف والأنتيكات.

توجد في البيت كل الأجناس، فيسكن في الدور الأرضي – صاحب البيت - الحاج مرسي تاجر الأنتيكات الشهير، يشغل شقة واسعة، أمامها حديقة كبيرة في مدخل البيت، يجلس فيها بالساعات هو وزوجته الحاجة زبيدة وابنته ياسمين وإبراهيم ابن أخيه - الشاب الذي يعيش معه.

بدأ الحاج مرسي عمله سرّيحًا يدور بعربة كارو بصندوق ينادي:

- كراكيب قديمة للبيع.

يشتري أشياء قديمة (صينية كبيرة من الصاج، أو براد حجمه كبير، أو فروة خروف مذبوح) أشياء تقلق سيدات البيت وتريد التخلص منها.

يقف بهذه الأشياء في بياصة الشوام بشارع العطارين - حيث يعرضون الأشياء القديمة والمستعملة – بعد عصر كل يوم، ثم اغتنى الحاج مرسي فجأة.

يردّد الناس هناك حكايات كثيرة عن غناه، سنذكر بعضها:

يقولون إنه اشترى دولابًا قديمًا، وعندما فتحه وجد داخله كنزًا: جنيهات ذهبية كثيرة ومئات الجنيهات. (هذه الحكاية تتردد كثيرًا هناك - بين باعة الأشياء القديمة - عن تجار كثيرين هناك، كلهم اغتنوا بهذه الطريقة).

لكن البعض يزعم أن الحاج مرسي اشترى مرتبة قديمة مغطاة بقماشة مهترئة، عرضها مرات عديدة في بياصة الشوام للبيع، فلم يقترب منها أحد، فقد كان الدود يخرج من أحشائها من شدة اتساخها، فقال له تاجر مجاور له:

- ارمها على كوم الزبالة لكي تتخلص منها، فمن سيشتري مرتبة بهذه القذارة؟!

لكن مرسي لم يفعل، وإنما وضع المرتبة في عربته الكارو التي يدفعها بيديه، وعاد بها إلى بيته، وقرّر أن يزيل غطاءها المتسخ القديم، ويستبدله بغطاء نظيف جديد، على أمل أن يجد من يرضى بشرائها.

ما أن خلع مرسي الغطاء المتسخ المتآكل حتى طلّت عليه مئات الجنيهات الورقية.

هو الآن أكبر تاجر أنتيكات ولوحات أصلية في الإسكندرية.

بيت الحاج مرسي فيه شقق كثيرة أخرى، ففي الدور الأول العلوي تسكن أسرة شامية، الوالد يمتلك محلّ حلواني بشارع البير، وتصعد ابنته الجميلة آسيا مع خادمتها سعدية لتفرش السجاجيد والأكلمة والأغطية في الشمس، قريبًا من حجرة جورج ميخاليدس الوحيدة.

يتابعهما جورج ميخاليدس باهتمام، والد آسيا – الحلواني الشامي- يقول عن هذا الخواجة إنه يعمل بالبوليس، تدهش آسيا فهو واضح القِصر، فكيف قبلوه جنديًا في البوليس وهو في هذا القصر؟!

عندما هبطت آسيا، قالت سعدية لها:

- هذا الخواجة اليوناني يتابعك باهتمام.

فنظرت آسيا بعيدًا عنها ولم تجبها بشيء.

وفوق شقة الحلواني الشامي يسكن يهودي يدور هو وزوجته وأبناؤه على مقاهي الإسكندرية بالكرتلة، كرتونة فيها أرقام وصور: تاج وهِلب وأشياء أخرى ومن حقك أن تختار رقمًا أو صورة وتدفع القيمة المحددة، ويقوم اليهودي بفك حرز الكرتلة التي توضّح الرقم أو الصورة الفائزة، وسعيد الحظ الذي يظهر رقمه أو الصورة التي اختارها، يكسب مبلغًا كبيرًا، أو هدية قيمة، أحيانًا تكون الجائزة زوج حمام من الذي تربيه زوجة هذا اليهودي فوق سطح البيت، بجوار حجرة الخواجة جورج ميخاليدس الوحيدة.

***

تتابع آسيا – ابنة الحلواني الشامي - الحاج مرسي وزوجته وابنته، وابن أخيه إبراهيم - هو شاب طويل أسمر- لم يخطئ مرة وينظر للشقة التي تسكنها آسيا ليعرف أنها تتابعه باهتمام، وذلك يعذب آسيا ويؤرقها، لماذا لا ينظر ناحية شرفتهم، ليراها، فتبتسم له وتلوّح له بيديها.

ربما أن جديته هذه هي سبب تعلقها به، فقد تقرّبت من ياسمين - ابنة الحاج مرسي - التي تصغرها بسنوات قليلة - وسألتها عن ابن عمها هذا، فقالت:

- هو في الحقيقة ليس ابن عمي، وإنما والده ابن عم أبي.

لا يهم آسيا درجة قرابته من الحاج مرسي، كل ما تريده أن يحس الشاب أن هناك فتاة معجبة به وتتمنى لو نظر ناحيتها.

أكملت ياسمين:

- هو يتيم، فقد أمه وأبيه في حادث؛ لذا استضافه أبي ليعيش معنا.

- أراه كثيرًا يحمل كتبًا وجرائد.

- لقد أرسله والدي ليتعلّم الصيدلية بمدينة لوزان بسويسرا، وقضى بها عامين.

شردت آسيا بعيدًا، وتمنت لو اقترب إبراهيم هذا منها وتحدث معها لبعض الوقت وحدثها عمّا لاقاه في سويسرا خلال هذين العامين، قد يكون قد أحب فتاة سويسرية هناك، ولذا لا يهتم بها ... أكملت ياسمين:

- والدي يعده ليكون صيدليًا.

صمتت الفتاة للحظات وأكملت:

- اتفق أبي مع أقارب له على شراء صيدلية لإبراهيم في المنشية.

لاحظت البنت سعدية – خادمة آسيا - أنها تنظر كثيرًا من نافذة المنور لشقة الحاج مرسي.

تابعتها الخادمة باهتمام، وسمعتها وهي تسأل ياسمين عن إبراهيم – ابن عمها – فاقتربت سعدية من آسيا قائلة:

- إنتِ تحبين إبراهيم هذا.

صاحت فيها غاضبة:

- لا شأن لك بهذه الأمور.

لم تخف سعدية، واقتربت منها أكثر قائلة:

- أستطيع مساعدتك.

دفعتها آسيا بيديها في عنف:

- أحذرك لو ذكرتِ هذا أمام أحد.

- لن أذكره مع أحد، لكنني سأقترح عليك حلًا سيحل كل مشاكلك.

لانت آسيا، وشردت بعض الوقت، فسعدية تعمل خادمة في بيتهم منذ أن كانت طفلة صغيرة، وآسيا تثق بها.

قالت سعدية:

- أنا أيضًا مشغولة بحب شاب.

- مَن هو؟

- حسني، الشاب الذي يقف بعربة حبّ العزيز واللب والسوداني، قريبًا من البيت.

- أراه كثيرًا يقف على ناصية شارعنا.

ضحكت سعدية وأكملت:

- إنه يقف من أجلي.

تذكرت آسيا أن هذا البائع الذي ينادي على بضاعته بصوته الجميل قريبًا جدًا من بيتهم، قالت سعدية:

- يمكننا الاستفادة من هذا البائع.

- هل جننت، تريدين أن تفضحيني؟!

- هناك طريقة مجربة، ستكتبين رسالة إلى حبيبك إبراهيم، وسأسلمها لحسني، فيحولها لقرطاس يضع به حبّ العزيز، ويعطيه لإبراهيم حبيبك، لن يشك أحد أن فيه رسالة، من يراه سيظنه قرطاسًا عاديًا يبيع فيه بضاعته.

شردت آسيا معظم الوقت، فقالت سعدية:

- هذه الطريقة تستخدم منذ سنوات طوال.

هذا هو الحل، أن تكتب رسالة غرام لإبراهيم – حبيبها – وتسلمها سعدية لحسني بائع حبّ العزيز ومعها قروش قليلة - مكافأة نظير توصيله للرسالة، فيعطي الرسالة لإبراهيم، الذي سيقرأ خطاب غرامها بعد أن ينتهي من أكل حب العزيز.

خرجت سعدية حاملة رسالة آسيا، ووقفت تحدّث حسني المتيم بحبها، تابعت آسيا الموقف من بلكونتها في حذر، وجدت البائع ينظر ناحية بلكونتها، فابتعدت لكي لا يراها.

تركت آسيا كل شيء وتفرغت لمتابعة إبراهيم، تريد أن تلفت نظره، لمحته وهو خارج من باب البيت الكبير، أسرعت للبلكونة لتتابعه، وجدته يقترب من حسني - بائع حبّ العزيز- الذي ناداه، فاقترب منه، لكنه سار في طريقه ولم يشتر منه شيئًا، ما هذا العذاب؟!

بكت آسيا من الأسى، فهي تزداد حبًا لإبراهيم هذا يومًا بعد يوم، غيرت معاملتها لسعدية – خادمتها – تضحك معها كثيرًا، وتحكي لها ما تحسه من وجد، الحب دائمًا يذل صاحبه ويضنيه.

تذكرت آسيا جيدًا يوم أن جاءت أم سعدية بها – وهي صغيرة - لتساعد أمها في صنع الحلويات الشامية التي تصنعها، ويبيعها والدها في دكانه بشارع البيْر، تقف أمها في المطبخ بالساعات، تضع الدقيق الفاخر في صينية كبيرة وتضيف إليه السكر والسمن والمكسرات، ثم تدخله الفرن، سعدية تعلمت من أم آسيا صناعة الحلويات والأكلات الشامية.

ما زالت آسيا تذكر أمها وهي تصنع «حواية» – قطعة قماش مكورة تضعها على رأسها - وفوقها صينية الحلويات، وتهبط بها درجات البيت على حذر، فيأخذها أبوها وأحد عماله منها ويضعانها داخل العربة النقل.

الآن سعدية هي التي تضع صواني الحلويات على رأسها وتنزل بها درجات السلم، وتسلمها لمساعدي والدها.

كل حلوانية الإسكندرية يشهدون لأبيها بأنه أمهر صانع حلويات في الإسكندرية كلها، كل هذا بفضل أمها.

ضاقت أم آسيا من تصرفات ابنتها، فصاحت بها:

- ما هذا الذي جدّ عليكِ، وقتك كله تقضينه في البلكونة؟!

الوقت تأخر، وليل الشتاء بارد وطويل، وإبراهيم لم يعد إلى البيت حتى الآن، لو تعرف أين يقضي وقته، أين يذهب.

عاد إبراهيم آخر الليل، لكن بائع حبّ العزيز ليس موجودًا... يا للخسارة، لو تستطيع أن تسرع للشارع

وتقابله قبل أن يدخل شقة عمه – الحاج مرسي.

***

يقف حسني – بائع حبّ العزيز واللب والسوداني، على ناصية شوارع المنطقة، ينادي بصوته الجميل عن بضاعته، تقترب البنت سعدية منه، تبتسم له في دلال.

سعدية سمراء، ووجهها ممتلئ، ارتباطها بهذه الأسرة الشامية أفادها كثيرًا، فقد تعلّمت صناعة الحلويات، لو تزوجها حسني – بائع حبّ العزيز – ستجعله يغيّر مهنته، ستصنع له الحلوى الشامية، ويبدأ ببيعها على عربته ثم تكبر تجارته ويفتتح محلًا مثل والد آسيا فقد بدأ بعربة يد صغيرة.

وتعلّمت سعدية أيضًا - من ارتباطها بهذه الأسرة الشامية - ارتداء الملابس الإفرنجية، عندما تذهب لحي غربال- الذي تعيش فيه أمها - تدهشهم بملابسها، والقبعة الإفرنجية التي تضعها على رأسها، تجعل الكل يتأوّه

من منظرها، الشباب يعجبون بها، والبنات يتقزّبن منها لكي تعلمهن كيف يرتدين مثل هذه الملابس.

يقول حسني – بائع حبّ العزيز – لسعدية وهو يمسك القرطاس:

- إبراهيم هذا لا يريد أن يشتري مني شيئًا.

لكن سعدية تعيد القرطاس إليه ثانية قائلة:

- لِح عليه حتى يوافق، ويقرأ الرسالة التي كتبتها له سيدتي آسيا.

فيعيد القرطاس لمكانه، وتحمل سعدية حفنة حبّ العزيز تتسلى بها وهي متجهة نحو البيت دون أن تدفع شيئًا.

يترك حسني عربة حبّ العزيز لجاره - الذي يبيع حلوى العسل - لن يغيب حسني، فسوف يقضي حاجته في المسجد القريب، وسيعود مسرعًا لعربته، يخرج في ذلك الوقت الخواجة جورج ميخاليدس، يقترب من عربة حبّ العزيز، يمسك حفنة ويأكل منها دون استئذان، يسأل عن حسني صاحب العربة، ثم يخرج نقودًا ثمن كيس حبّ العزيز، فينظر بائع حلوى العسل إلى القراطيس الفارغة الكثيرة والمعلقة في جانب العربة، ثم يلمح قرطاسًا ممتلئًا بحبات حبّ العزيز، فيحس بالسعادة، فهو لا يعرف المقدار الذي يحدده حسني مقابل النقود التي وضعها جورج ميخاليدس في يده، فيعطي القرطاس لجورج ميخاليدس الذي يسير ذاهبًا لعمله، يقزقز حبّ العزيز طوال الطريق، وتتبقى حبات قليلة في آخر قرطاسه، فيرميها في فمه مرة واحدة، ثم يفرد ورقة القرطاس، فيدهش مِمَّا يقرأ، يجد رسالة من آسيا – ابنة الحلواني الشامي – التي تسكن الدور الأول العلوي في البيت الذي يسكنه، لم تذكر اسم مَن تحبه، لكنها تنتظره وهو سائر، تلومه لأنه لم ينظر يومًا إلى بلكونتهم وهو سائر، وقد وقعت الرسالة باسمها آسيا.

تذكّر جورج رؤيته لها وهي تنشر السجاجيد والأكلمة – هي وخادمتها – على الجدار المجاور لحجرته التي يسكنها، كانت تنظر إليه في صمتٍ واهتمام. يا للسعادة، إنه اكتشاف هائلٍ وعظيم، فهو منذ أن رأى آسيا وهو يتمنّى أن تكون زوجة له، لم يكن يظن أنها تهتم به كما يهتم بها.

عندما عاد حسني – بائع حبّ العزيز – سأل بائع حلوى العسل عن القرطاس الذي كانت فيه حبات حبّ العزيز، فقال:

- بعته لذلك الذي يسكن في هذا البيت.

وأشار لبيت الحاج مرسي، فابتسم حسني، وسعد لأن القرطاس ذهب لصاحبه، فقد ظنّ أن إبراهيم هو الذي أخذه منه.

***

تعمّدت آسيا أن تدفع نافذة المنور في عنف، فنظر إبراهيم إلى مصدر الصوت، إنها فرصة قد لا تتكرر، فابتسمت آسيا له ولوحت له بيدها، فرفع يده ملوحًا لها، أكيد الرسالة التي كتبتها له وقد قرأها بعد أن أكل حبّ العزيز قد أتت أكلها، وغيرته، فهو ينظر إليها لأول مرة، ويبتسم لها لأول مرة، وأيضًا يلوّح لها بيده.

ذلك التقدم الذي فعله إبراهيم جعل آسيا تتجرأ وتقترب أكثر منه، فقد ارتدت ملابسها وتابعت شقة الحاج مرسي، وأوصت خادمتها سعدية لأن تساعدها في ذلك، وما أن رأت إبراهيم يخرج من باب الشقة، حتى أسرعت لسلم البيت، المسافة من باب الشقة حتى باب البيت ليست قصيرة، فمساحة الحديقة كبيرة، استطاعت آسيا أن تسير خلف إبراهيم، لحقت به بجوار حديقة عامة بعيدة عن البيت، صاحت وهي تلهث من أثر سرعتها في متابعته، فهو طويل وخطوته واسعة، نظر خلفه ففوجئ بوجودها، وكانت تلهث:

- أتعبتني.

مدّ يده الكبيرة وضم يدها بين أصابعه:

- آسف لأني أتعبتك.

- أنا أتعذب منذ سنوات، أتابعك طوال الوقت وأنت بعيد عني تمامًا.

- معذرة لم ألاحظ كل هذا.

- ياسمين ابنة عمك أبلغتني أنك تستعد لإدارة صيدلية.

أومأ برأسه:

دخلا الحديقة معًا، وسارا معًا داخلها، قالت:

- إنك تعذبني بعدم اهتمامك بي.

عادت آسيا سعيدة، الوحيدة التي علمت بما فعلت هي خادمتها سعدية، حكت لها عمّا قاله إبراهيم لها، سيتذكرها طوال الوقت، وسيخطبها خلال شهور قليلة قادمة.

***

لاحظت آسيا أن الخواجة اليوناني جورج ميخاليدس، يكثر من الابتسام لها كلما رآها، ويخرج من حجرته فوق سطح البيت كلما صعدت مع سعدية – خادمتها – قدم إليهما الشاي، ودعاهما للجلوس في حجرته، لكن آسيا أصرّت على عدم الدخول، قالت سعدية لها:

- نرتاح في حجرته لبعض الوقت.

لكن آسيا أصرّت على النزول، وهو كان يتابعها بابتسامته العريضة.

قالت سعدية لها وهما تنزلان السلم:

- هذا الخواجة اليوناني مجنون بك.

فدفعتها آسيا في عنف ولم ترد.

تقابل إبراهيم مع آسيا مرات كثيرة، كان يحدثها في كل مرة في أشياء لا تفهمها، وقد سمعت عمه الحاج مرسي يصيح فيه في غضب، ويعنفه لأنه يصادق شخصيات غريبة وشاذة، سألت إبراهيم عن هذا، فابتسم قائلًا:

- إنني على صلة بكبراء البلد، لكن عمي لا يفهم في مثل هذه الأشياء.

وسألت آسيا ياسمين ابنة الحاج مرسي عما يحدث في شقتهم، قالت لها:

- إبراهيم ابن عمي يتعامل مع سياسيين معارضين للحكومة.

ألحّت آسيا على مقابلته، ذهبت إليه في صيدلية المنشية التي يشرف عليها الآن، هذه أول مرة تزوره في الصيدلية، لكن ما سمعته من ياسمين ابنة الحاج مرسي يؤرقها، ابتعد مساعده في الصيدلية، دخل الحجرة الداخلية ليترك لهما المجال في الحديث، قالت لإبراهيم:

- إنني قلقة عليك.

ابتسم لها قائلًا:

- هذه أمور أكبر من الحب والزواج، أمور تخص بلادنا كلها.

عادت آسيا حزينة، بكت في الطريق.

علمت آسيا أن إبراهيم انضم للحزب الوطني الذي يرأسه محمد فريد، وأنه ارتبط بجمعية مصر الفتاة وجمعية اليد السوداء، وكتب مقالات في جريدة اللواء - صحيفة الحزب الوطني - وكتب في صحيفة المؤيد، وهو الذي أسس جمعية التضامن الأخوي السرية، وأصرّ على أن ينص قانونها على أن من ينضم إليها يجب أن يكتب وصيته، وقد قامت خلية منها باغتيالات متعددة للإنجليز وأتباعهم.

علم إبراهيم بأن بطرس غالي – رئيس وزراء مصر– وافق على تمديد امتياز قناة السويس لمدة أربعين عامًا أخرى – بعد انتهائه في عام 1968 – مقابل مبلغ من المال تدفعه شركة قناة السويس الفرنسية إلى الحكومة المصرية على أربعة أقساط إلى جانب نسبة في الأرباح.

تأثّر إبراهيم بما فعله بطرس غالي فسافر إلى القاهرة وقرّر أن يغتاله.

خرج بطرس غالى في تمام الساعة الواحدة بعد الظهر يوم 20 فبراير 1910، من غرفته في ديوان الخارجية بصحبة حسين باشا رشدي- وزير الحقانية وفتحي باشا زغلول - وكيل الحقانية - وعبد الخالق ثروت - النائب العمومي - وأرمولى بك التشريفاتى بالخارجية، ثم فارق بطرس غالي كلّ من كانوا معه، عند السلم الخارجي- وبينما همّ بطرس غالي بركوب عربته اقترب منه إبراهيم متظاهرًا بأنه يريد أن يرفع له عريضة وأطلق عليه رصاصتين، إحداهما أصابته في صدره، وما كاد يلتفت خلفه ليرى صاحب هذه الفعلة حتى أطلق عليه إبراهيم ثلاث رصاصات أخرى أصابت عنقه من الخلف واثنتين في كتفه، وأطلق رصاصة سادسة أصابت ثيابه.

استدعوا الدكتور سعد بك الخادم فأخذ يسعف بطرس غالي ويخرج الرصاصات من العنق والكتف، وأفاق بطرس غالي قليلًا وكان في النزع الأخير، فحمل إلى مستشفى الدكتور ملتون بباب اللوق، وفور وصوله إلى المستشفى اجتمع حوله 15 طبيبًا من كبار الأطباء في مصر، وقد رأوا في بادئ الأمر عدم إجراء عملية له لكن في النهاية تم إجراؤها لإخراج الرصاصات الباقية.

وبعد انتهاء العملية لإخراج الرصاص ارتاح بطرس غالي نوعًا ما، ولكن الألم ازداد بعد قليل وارتفعت حرارته، وأصبح في خطرٍ قريبٍ، ولم تأت الساعة الثامنة والربع مساء حتى أسلم الروح بين بكاء الحاضرين في الساعة السابعة والدقيقة 45 من صباح يوم الإثنين 21 فبراير سنة 1910.

عقد مجلس الوزراء برئاسة الجناب العالي في سراي عابدين وقرّر تعطيل وزارات الحكومة وجميع مصالحها والمدارس الأميرية إلى أجلٍ غير مسمى، وكذلك تنكيس الأعلام على الثكنات العسكرية ودور الحكومة حدادًا على فقيد مصر العظيم.

مثل إبراهيم أمام المحكمة في 21 أبريل 1910م برئاسة الإنجليزي دلبر وجلي، وكان من المحامين الذين حضروا للدفاع عنه أحمد بك لطفي السيد وعبد العزيز بك فهمي وعلي بك علوبة وإبراهيم بك الهلباوي.

وعند التحقيق قال إبراهيم إنه قتل بطرس غالي لأنه خائن للوطن، وكرّر اعترافه أثناء المحاكمة وأكدّ عدم ندمه، واعترف أنه فكرّ في قتله عندما حضر جلسة الجمعية العمومية ورأى بعينيه تصرفات بطرس غالي المتعجرفة تجاه أعضاء المجلس، وقبض على كثيرٍ من أعضاء جمعية التضامن الأخوي في حينه، لكن إبراهيم أصرّ على أنه قام بعمله بنفسه وتخطيطه دونما معونةٍ من أحد فبرّئ المتهمون الآخرون جميعًا.

تابعت آسيا الأحداث في بيتهم الكبير في أسى وحزن شديدين، ارتدت ملابس الخروج وخرجت من شقتهم وسط دهشة أمها وخادمتها - سعدية – فقد كانت تبكي منهارة.

وقفت على باب البيت حائرة لا تعرف أين تذهب، فوجئت بقوات الشرطة تقترب من البيت، فعادت إلى شقتهم، ونظرت من نافذة المنور لتتابع ما يحدث، رأت الشرطة تقتاد الحاج مرسي الذي يسير في أناة وضعف، ويردّد كلمات غامضة غير مفهومة.

وجهت تهمة القتل العمد مع سبق الإصرار لإبراهيم، وهي جريمة عقوبتها الإعدام، وانشغل الرأي العام المصري بالحادث انشغالًا كبيرًا، حتى فشت تلك الفترة خطابات التهديد إلى الوزراء وكبار المسؤولين في الدولة.

قام بالتحقيق في القضية عبد الخالق باشا ثروت- النائب العام -وذكر في مرافعته أن الجريمة المنظورة أمام المحكمة جريمةٌ سياسيةٌ وليست من الجنايات العادية، وأنها بدعة ابتدعها إبراهيم بعد أن كان القطر المصري طاهرًا منها وطالب بالإعدام، فيما نافح الدفاع عن أن إبراهيم مختلٌ عقليًا، وأرسل الحكم إلى الشيخ بكري الصدفي- مفتي الديار المصرية - لإقراره، لكنه رفض الموافقة لأن الشرع يرفض أن يقتل المسلم إذا قتل غير المسلم، وإنما يكتفوا بسجنه، ونفذ حكم الإعدام رغم ذلك في إبراهيم في 28 يونيو 1910.

حاولت آسيا أن تخرج من البيت في ذلك اليوم، شدتها أمها في عنف، وساعدتها البنت سعدية، لكن لم يقدرا عليها، فقد دفعتهما في عنف وخرجت، كان شعرها غير مرتب، والدموع تغسل وجهها.

في هذا الوقت تحوّل إبراهيم إلى بطلٍ شعبيٍ ورمزٍ وطنيٍ تُنظم فيه الأشعار والأزجال، ومنها الشعر الشعبي:

- قولوا لعين الشمس ما تحماشي لاحسن غزال البر صابح ماشي.

وخرجت المظاهرات - خاصةً يوم إعدامه، وشاعت صوره في المقاهي والأماكن العامة حتى صدر قرار يُجرّم أي مصري يحتفظ بصورة إبراهيم وبقي القرار ساريًا حتى ثورة يوليو 1952.

***

تقضي نائلة وقتًا طويلًا في حمّام بيتها، تضع مبسم الشيشة في فمها، ويقوم الخدم بتغيير الفحم من وقتٍ لآخر، يعرف الخدم الوقت الذي تهدأ فيه نائلة وترتاح، وقت أن يأتي إليها شابٌ قويٌ، يسمعون صوتها وهي تغني وتضحك من قلبها.

وتغيرت نائلة كثيرًا عندما جاءتها الطّرمة، عاينتها عارية تمامًا، وأخذت تمر بأصبعها السبابة على كل جزءٍ من وجهها، ثم كل جزء من جسدها العاري، وهي تومئ برأسها في إعجاب.

في الأوقات التي تبقى نائلة وحدها في الشقة- حينما يتأخر عشاقها في الحضور إليها- تذهب إلى الطّرمة، تحتضن وجهها النحيف، تقبلها في فمها قبلة طويلة كما يفعل الرجال بالنساء.

اندهشت الطّرمة أول الأمر، لكنها اعتادت على هذا منها، كثيرًا ما جاءتها نائلة وهي نائمة، تهمس في أذنها في رقة وفي صوتٍ حالمٍ، لكي تفسح لها مكانًا بجوارها على السرير، تتغير نائلة تتحول لعاشق ضعيف يستجدي محبوبته، تشرد الطّرمة وكأن مَن تقترب منها ويحدثها بهذا الود، ليست سيدتها نائلة، التي تسبها، وتصفعها أحيانًا لأقل خطأ يحدث منها.

تثور نائلة أحيانًا على الجميع، حتى على الطّرمة، ترميها بأقرب شيء قريب منها، رمتها يومًا بالمدفئة المليئة بالفحم الملتهب، فصرخت الطّرمة من شدة الألم، فقامت نائلة واحتضنتها باكية:

- ماذا بكِ، لو حدث لك مكروه لن أتحمل الحياة بدونك.

ليلتها بكت نائلة من الألم والحسرة لأنها آذت الطّرمة، لكن الطّرمة الآن تتمنى لو ابتعدت عن نائلة، تعيش في أي مكان بعيد عنها، حتى لو كان هذا المكان حدائق محطة مصر، بين أولاد وفتيات الشوارع، فنائلة سرعان ما تتغير ودون سبب واضح.

***

صدمة قوية حدثت في البيت الذي يسكنه الحاج مرسي - ابن عم والد إبراهيم الذي قتل بطرس غالي –

والغريب أن يسكنه أيضًا جورج ميخاليدس الذي وصل وقتها لرئاسة قسم متابعة العاهرات في الإسكندرية.

فمقتل رئيس وزراء مصر بهذه الطريقة أدخلت مصر في دائرة الاغتيالات السياسية، وكان من الضروري أن تنشأ إدارة جديدة في البوليس المصري تختص في هذه الجرائم، فقد استدعى هرفي باشا – حكمدار القاهرة - جورج ميخاليدس وعينه رئيسًا لهذه الإدارة الجديدة المسماة المكتب السياسي.

سافر جورج ميخاليدس إلى القاهرة وتولّى منصبه الجديد، ذلك شجعه لأن يتجرأ ويطلب الزواج من آسيا – الفتاة الشامية الجميلة التي تسكن في البيت الذي كان يسكن حجرة فوق سطحه.

لَطَمَت آسيا خديها وبكت عندما علمت بما فعله إبراهيم حبيبها، وعندما علمت أمها أنها كانت تقابل هذا الشاب ضربتها في عنف، وكان لا بد لها من أن تقبل خطبة الخواجة اليوناني جورج ميخاليدس، وأن تنتقل معه لبيت أهله الذي يسكن فيه مع أخته الكبيرة ساندرا.

***

كانت الحاجة زبيدة – زوجة الحاج مرسي تنتظر من إبراهيم أن يخطب ابنتها ياسمين، هي أصغر منه بسنوات كثيرة، لكن هذا ليس مهمًا، فالبنات كبارة، كما أن والدها – الحاج مرسي – له أفضال كثيرة على إبرهيم، فما أن علم بموت أمه وأبيه في الحادثة المشئومة حتى سافر لبلدته وطلب منه أن يأتي للإسكندرية ليعيش في كنفه، شردت الحاجة زبيدة، وارتاحت للرأي بأن ما يفعله زوجها – الحاج مرسي – سيفيد ابنتها الوحيدة ياسمين، وقد ضحّى زوجها وأنفق أموالًا طائلة في تعليم إبراهيم، سنتان وهو يدرس الصيدلة في سويسرا، وعام في بريطانيا يدرس الكيمياء، كل هذا من أجل ابنتها ياسمين، لكن إبراهيم أطاح بكل شيء، واختار أسوأ الطرق، قتل رئيس وزراء مصر، فضيّع نفسه وضيّع الحاج مرسي وأسرته بالكامل، فقد أغلق الحاج مرسي كل متاجره، ومكث في البيت، يبيعون الآن لوحاته الأصلية التي كان يحتفظ بها، وهاجمته الأمراض، فقد نقلوه إلى مستشفى الأميري، فأغلقت الحاجة زبيدة شقتها الواسعة، وذهبت هي وابنتها ياسمين إلى شقة قريبة من المستشفى الأميري لتتابع زوجها المريض.

كل شيء ضاع بما فعله إبراهيم هذا ... لا، ما فعله إبراهيم أثر على كل سكان البيت، فالخواجة اليوناني جورج ميخاليدس ترك البيت، وصار من كبار رجال الشرطة، وتزوّج البنت آسيا ابنة الحلواني الشامي المشهور في شارع البئر.

وجاء حسني – بائع حبّ العزيز واللب والسوداني إلى البيت، كان يرتدي ملابس أنيقة عمرهم ما رأوها عليه، جاء ومعه أمه وأبوه وبعض أصدقائه، قابلوا الحلواني الشامي وخطبوا منه البنت سعدية خادمتهم، ذهبت سعدية معه، وابتعدت وابتعد هو أيضًا، لم يعد يقف بعربته على ناصية الشوارع القريبة من البيت.

***

كل الأشياء تغيرت، آسيا انتقلت لبيت زوجها جورج ميخاليدس الذي يسكنه مع أخته الكبيرة ساندرا.

تذهب سعدية لبيت آسيا، لقد تغيّر وجه سعدية، فقدت كثيرًا من وزنها، وشحب وجهها.

كانت حزينة، تنظر إلى الأرض في أسى وحزن، تابعتها آسيا في دهشة، وصاحت بها:

- ماذا بك يا سعدية، كنت تكثرين من الضحك والحديث؟!

تنهّدت سعدية في أسى:

- كل شيء ضاع يا سيدتي.

- ماذا بك؟

- غير سعيدة مع حسني هذا.

- لماذا؟

بكت قائلة:

- غلبت معه، حاولت أن أطوره، أن يترك بيع حبّ العزيز وأصنع له الحلويات الشامية ليبيعها على عربته، لكنه رفض بإصرار، قال لي من فات داره، قل مقداره.

بكت سعدية وأكملت:

- ما يكسبه لا يكفيني أنا وهو.

- وماذا ستفعلين؟

- أريد العودة للعمل خادمة كما كنت؟

- أين يا سعدية، فقد مات أبي وماتت أمي.

- عندك أنت يا ست آسيا، فأنت في حاجة إليّ الآن.

- لكن جورج زوجي عنده عساكر مراسلة كثيرين يقومون بالخدمة.

- أعمل معهم.

- وزوجك، هل سيقبل بذلك؟

- لا أريد العودة إليه.

- هكذا، دون أن يطلقك؟!

إقتربت سعدية منها، وأمسكت يدها:

- لقد فكرت في الأمر طويلًا، ووجدت أن الحل عندك أنتِ بالذات.

- إنه يمكن أن يجبرك على العودة إليه.

- كيف؟

- بالقانون.

- هذا لو كنت أعمل في بيت آخر غير بيتكم.

- تقصدي ... ...

- حسني بائع حبّ العزيز لا يستطيع مواجهة جورج ميخاليدس مدير التنظيم السياسي في البلاد الآن.

- آه.

عملت سعدية كل شيء في البيت، كانت تنتقل من العمل في شقة آسيا إلى العمل في شقة ساندرا – أخت جورج ميخاليدس الكبيرة والمحببة إلى قلبه.

وجاء حسني ومعه أقاربه، كان يرتدي معطفًا أنيقًا، قال لسعدية:

- هيا بنا يا سعدية.

فقالت:

- لن أعود إليك ثانية.

نظر حوله في حيرة، اقترب منها في هدوء:

- لا أريد أن أعلي صوتي في بيوت الناس.

فضحكت سعدية قائلة:

- جننت حتى تعلي صوتك في بيت جورج ميخاليدس؟!.

- هيا يا سعدية.

وقفت متحدية:

- لن أعود إليك ثانية، إنني نادمة لأنني قبلت أن أتزوجك.

اقتربت آسيا عندما سمعت صوت سعدية العالي والمتحدي:

- اهدأي يا سعدية، تحدثي بهدوء.

وقفت فزعة، قالت في حدة وغضب:

- حسني، أرجوك لا تأتي ثانية إلى هنا، لأني لن **أعود إليك**.

وقف الرجال الذين جاءوا معه غاضبين.

قالت آسيا لحسني:

- تحملها لأيام قلائل وستعود **إليك**.

تردّد حسني لبعض الوقت حائرًا فيما سيفعل، ينظر إلى زوجته **التي لا تريده، ثم** إلى الرجال الغاضبين من تصرفات زوجته، **ثم** سار خارجًا من الشقة.

للغربي – ملك الدعارة في مصر الآن - ابن اسمه إبراهيم، هو صديق لأنور، يأتي أحيانًا من القاهرة لزيارته، يقضي أيامًا في ضيافة نائلة بنت عبد الله، التي تبالغ في إكرامه من أجل والده – زعيمهم جميعًا.

يركب إبرهيم الغربي عربة حنطور قائدها يتعامل مع الكومبكير، فقد أحس إبراهيم الغربي برغبة في الخروج إلى الشارع، فصيف سماء الإسكندرية صاف الآن ويغري بالخروج، والناس يطردها الحر في البيوت فتخرج إلى الشوارع بحثًا عن نسمة هواء. ينزل إبراهيم بملابس النساء، يضع باروكة فوق رأسه، ويدهن وجهه بالمساحيق، ويضع قطعًا من القطن في صدره، ويشد فوقها مشدًا للصدر، ويلبس حذاءً عاليًا، ويضع الحلي في رقبته وأذنيه وذراعيه.

لم ينجب الغربي ولدًا سواه، فباقي ذريته نساء، كلهن يعملن في الدعارة.

يجلس إبراهيم فوق مقعد الحنطور الكبير وحده، ويمد ساقيه العاريتين والخاليتين من الشعر على المقعد المقابل، ويلوك «اللادن» وهو ينظر إلى الرجال في رغبة واضحة.

هذه الحالة تشده إليها منذ وقت لآخر، فهو يستطيع أن يحصل على ما يريد في بيوت الدعارة الكثيرة التي يديرها والده، وتساعده فيها أمه وأخواته، لكن الرغبة في الخروج إلى الشارع بهذا الشكل – رغم خطورته – تسيطر عليه ولا يستطيع الإفلات منها.

هو عادة ما يعود آخر الليل دون شيء، لكنه يحس بسعادة، وينام ملء جفنيه؛ لأنه حقّق ما أراد.

يحكي معارف إبراهيم، ومعارف والده أن ما حدث لإبراهيم كان عقابًا مستحقًا لأبيه - الغربي - الذي دأب على إيذاء أولاد الناس، فكان يسرقهم من الشوارع – خاصة الهاربين من أهاليهم – ويجبرهم على ممارسة الفحشاء، ويقدمهم بعد أن ينظفهم إلى زبائنه، وكان حريصًا على أن يبعد ابنه الوحيد عن هذا المجال، لكن الولد انساق إليه وصار واحدًا من الراغبين في التعامل مع الرجال.

يرتاح إبراهيم الغربي في الحديث مع أنور هذا، يسأله عن حال هذا البيت الذي يجمع الشواذ، يتنهّد أنور في أسى وحزن، فالشرطة تطاردهم هذه الأيام، ولا تسمح لهم بالتصرف على حريتهم، يأتي ضابط مخفر شرطة اللبّان أحيانًا ويربط جميع الشواذ في حبل واحد ويقودهم للمخفر، فقد قررت الحكومة إلقاء القبض على المخنثين المنتشرين بحي اللبّان، ووضعهم في معتقل بأبي قير، فتم القبض على إبراهيم وأنور، وصفعوا العربجي الذي يعرفون أنه يتعامل مع بيوت الدعارة.

سحبوا إبراهيم وأنور إلى عربة البوليس الكبيرة، فصاح إبراهيم غاضبًا وأعلن أنه ابن الغربي المعروف لديهم، وأن كبار رجال الدولة يتعاملون مع والده، ويزورون بيوته السرية كثيرًا.

لكنهم لم يسألوا عنه، ورموه في مخفر شرطة اللبّان توطئة لنقله إلى معتقل أبو قير.

ذهب الغربي - والده – وقابل مأمور القسم - وعرض عليه رشوة للإفراج عن ابنه، وتعهّد بألا يعود ابنه إلى ارتداء ملابس النساء والتزين بالحلي مرة أخرى، فقال المأمور:

- سأتحدّث مع محمد محمود – مساعد الحكمدار – في ذلك.

***

اقترب محمد محمود من الحكمدار، وقال في صوتٍ خافتٍ:

- أرجو الإفراج عن إبراهيم الغربي ... و...

فوجئ محمد محمود بثورة عارمة من الحكمدار، فقد ضرب على مكتبه في عنف قائلًا:

- لن أفرج عنه، ولكي ترتاحوا جميعًا، سآمر بالقبض على الغربي والده أيضًا.

***

تقابل جورج ميخاليدس – مع محمد محمود – مساعد الحكمدار، وقال له:

- الغربي رجل طيب، وأريد عمل طريقة لإخراجه هو وإبراهيم ابنه.

فقال محمد محمود لجورج ميخاليدس:

- أخرجني من هذا الموضوع، فالحكمدار ثار عليّ عندما طلبت منه ذلك.

تحدّث جورج ميخاليدس في البيت مع زوجته آسيا بخصوص إبراهيم الغربي، فضحكت بصوتٍ مرتفعٍ؛ عندما علمت بما يفعله هؤلاء المخنثون.

(يتحدث جورج ميخاليدس مع زوجته آسيا كثيرًا في تفاصيل عمله، يشاركها في كلّ شيء، ويثق في آرائها).

زارهم في بيتهم - في تلك الليلة - محمد محمود – مساعد الحكمدار – هو يكثر من زيارتهم، وتعد له آسيا المأكولات الشامية التي يفضلها الرجل، فزوجته لا تعرف كيف تطهيها. دار الحديث حول موضوع المخنثين، فقالت آسيا لمحمد محمود:

- لماذا لا تتصلوا بأصدقاء الغربي حتي يدفعوا ويفرج الحكمدار عنه.

وبالفعل أرسل محمد محمود إلى نائلة بنت عبد الله، فجاءت المرأة قلقة، فهي لا تخشى في حياتها إلا مقابلة رجال البوليس.

قال لها محمد محمود:

- أنتم لا تهتمون بالغربي ما دام في الحبس، أنا والله مستاء مِمّا حدث له.

- كلنا مستاؤون لأجله، لكن ما باليد حيلة.

شردت نائلة بعض الوقت، ثم قالت:

- أنا حزينة أكثر لأنهم قبضوا أيضًا على أنور.

ضاق مساعد الحكمدار من حديثها وسأل:

- من أنور هذا؟

- الذي رباني بعد موت أمي لينا في الحريق.

ضاق محمد محمود بحديثها ثم قال:

- انزلي ... انزلي واطلعي بتلتميت جنيه، وسلميهم لآسيا زوجة جورج ميخاليدس، هذا هو الحل.

جمعت نائلة الثلاثمائة جنيه وذهبت بهم إلى بيت جورج ميخاليدس، قابلت آسيا – زوجته – فوعدتها آسيا خيرًا.

***

تذهب نائلة إلى الزقاق الذي يقع فيه البيت الذي يسكنه أنور، هذا البيت وذلك الزقاق الذي تربّت فيه، عندما تسلمها أنور من الأسرة التي كانت ترعاها بالأجر، بعد موت أمها لينا حرقًا بالنار.

تنظر نائلة إلى القهوة الصغيرة أسفل البيت التي تضم الشواذ، وتقف الطرمة - مساعدتها – بجوارها.

تعرف نائلة كل حجرات البيت، فقد قضت الليالي في كل حجرة من حجرات البيت، تتذكّر ما كان يحدث في الليلة التي تقضيها في هذه الحجرة، حينما يأتي صديق أنور إليه.

هذا البيت كانت تمتلكه امرأة تسكن خارج منطقة اللّبان كلها، كانت تأتي كل عدة شهور لأخذ الأجرة من السكان، وكانت تعلن بأعلى صوتها:

- يا عالم يا هوه، إنني غير راضية عمّا يحدث في بيتي هذا، وأعلم أن ربي سيعاقبني من أجله.

يصل الحال بصاحبة بيت الشواذ لأن تبكي بحرقة:

- وربنا يعاقبني الآن في الدنيا، فهو غير راضٍ عني لما تفعلونه ببيتي.

تمسح المرأة دموعها، وتجلس على مقعد في القهوة الصغيرة قائلة وكأنها تعدّد:

- لو يأتي مشترٍ ويريحني من عذاب هذا البيت الذي يسبب الأذى لي، لأرتاح من ذنوبي.

فاقترحت الطّرمة على سيدتها نائلة – بأن تشتري هذا البيت وترتاح من زن صاحبته، فاستجابت نائلة وأرسلت الطّرمة إلى صاحبة البيت، وتم الاتفاق، فالمرأة ما صدقت أن وجدت مشتريًا لهذا البيت الذي يتسبّب في حدوث النحس لها ولأسرتها، وعاشت الطّرمة في حجرة من حجراته خاصة أن عشاق نائلة الشبان الأقوياء يزداد عددهم في الآونة الأخيرة، ولم تعد الشقة صالحة لبقاء الطّرمة فيها، فهي تذهب لزيارة سيدتها من وقتٍ لآخر، لتوريد الإيراد لها، أو لمهام صغيرة أخرى.

***

تُمسِك آسيا الثلاثمائة جنيه التي أعطتها لها نائلة بنت عبد الله وتشرد فيما حدث لها، كيف تغيّرت، هي البنت الرومانسية التي تعرف القراءة بالفرنسية، تتذكّر آسيا حياتها، حبها لإبراهيم قبل أن تتزوّج، فقد قرأت ماجدولين، وتمنّت لو أحبت، وأرسلت رسائل لحبيبها كما أرسلت ماجدولين، وأن يرد عليها إبراهيم برسائل الحب، كما فعل حبيب ماجدولين، لكن حبيبها – إبراهيم خذلها وضيّع كل شيء عندما قتل بطرس غالي رئيس وزراء مصر.

في المساء حكت آسيا لزوجها جورج ميخاليدس عن رغبة سعدية أن تعمل خادمة لديهما، فقال لها:

- لسنا في حاجة لخدم، فالعساكر المراسلة كثيرون.

- سعدية ترتاح للعمل مع أختك ساندرا، وتقضي معظم الوقت في شقتها، فلماذا لا تبقى خادمتها طوال الوقت؟

وعندما جاءت ساندرا قالت لأخيها جورج ميخاليدس:

- إيلين ابنتي في حاجة لخادمة، فآلام الحمل تتعبها في هذه الأيام. ماذا لو أرسلنا سعدية إليها في سوق عقداية، على الأقل سترتاح من مطاردة زوجها لها.

أومأ جورج برأسه وانشغل بطعامه، وبذلك انتقلت البنت سعدية لبيت إيلين في حي سوق عقداية.

***

يقولون إن اسم سوق عقداية جاء بسبب تجمع التجار أمام بيت المرأة الجميلة عقداية، يأتون ببضائعهم من القرى المجاورة للإسكندرية، تستقبلهم عقداية في بيتها الكبير، تقدّم إليهم النساء الجميلات اللائي يعملن تحت أمرتها. يعرض الرجال – الذين يتعاملون مع عقداية ونسائها - بضائعهم أمام بيتها في شارع الملك الأشرف، اتسع السوق أمام بيتها، فهم يفرشون الفاكهة والخضار، وبعضهم يعرض الجبن القريش والزبدة، وامتدّ السوق، فهم يبيعون فيه الآن الإيشاربات والخردوات. تجاوز السوق شارع الملك الأشرف ووصل للشوارع المجاورة -

شارع ابن الهايم وشارع الزمزمي وشارع أسوان الذي يبدأ من شارع راغب باشا وينتهي في شارع العمري.

الأهالي الذين يعيشون الآن في منطقة سوق عقداية لم يعاصروا عقداية ولا نساءها الجميلات، ولا يستطيع مؤرخ أن يحدد الزمن الذي عاشت فيه عقداية ونساؤها.

الذي يعرفه الناس جيدًا الآن، أن منطقة سوق عقداية، تجتمع بها جنسيات متعددة ففي أول شارع ابن الهايم يقع بيت التومبكشي- أعلى بيت في الشارع كله - سكانه كلهم بيض الوجوه، وشعر رءوسهم ناعمة فهم من أصل تركي، ويسكن في الشارع الكثير من اليونانيين والأرمن والشوام.

في آخر شارع ابن الهايم، الباب الخلفي لجامع سلطان الكبير والشهير، فهم يصلُّون فيه على الميتين الذاهبين لعمود السواري، فهو أكبر مسجد يقابلونه في طريقهم للمدافن.

والبيت المجاور لبيت التومباكشي يسكنه خمسة إخوة من اليونانيين يعملون في مخلفات ورش الخشب المنتشرة الآن في الإسكندرية. أصحاب ورش الخشب يونانيون مثلهم، يقلقهم وجود المخلفات التي تخرج من صناعة الأبواب وأرضية العمارات والفلل المصنوعة من الخشب الباركيه يخافون أن تسبّب حرائق في الورش، فسمحوا ليونانيين مثلهم أن يحصلوا عليها ويستفيدوا بها، يجمعون الخشب الكسر الذي لا يصلح للصناعة، والفارة الخشنة التي تتساقط عند صنفرة الخشب، ثم النشارة الناعمة. يبيعون هذه الأنواع الثلاثة لأصحاب المخابز ومقالي اللب والسوداني، أو يستخدمونها في قمائن الطوب التي تحوّل الطوب اللّبن إلى طوبٍ حراريٍّ يبنون به البيوت في الإسكندرية، وتستخدم النشارة الناعمة في تنظيف المحلات والمقاهي، يرشونها فوق البلاط بعد تنظيفه بالماء، وتعامل معهم - في الفترة الأخيرة – أصحاب الأسطبلات، الذين يربون الخيول المشتركة في السباق، يشترون الفارة الخشنة ليفرشوها تحت أجساد الخيول، بدلًا من التبن الذي غلا ثمنه في الفترة الأخيرة.

***

استيقظت إيلين مبكرًا عن كل يوم، أشعلت الوابور، صوت وشيشه أقلق زوجها إسكندر، فتململ في فراشه مردّدًا:

- أستغفر الله العلي العظيم (ذلك شأنه إذا غضب أو أغاظه أحد).

يسكن إسكندر الحجرتين اللتين تطلان على الشارع، بينما يسكن أخوه جوزيف في الحجرتين الأخريين في الدور أسفل سقف البيت.

اقتربت إيلين منه حذرة، قالت في صوتٍ خافتٍ:

- ستستحم؟

أشاح بيده فابتعدت، وابتعد الغطاء عن جسده فازداد ضيقًا بها، زفر وأعاد الغطاء ثانية لجسده، وانسحبت إيلين دون قول، كانت تريده أن يخلع ملابسه لكي تأخذها معها في الغسيل.

دورة المياه مشتركة مع جوزيف - شقيق زوجها - لم يحن موعد استيقاظ إسكندر- زوجها – والولد نيقولا وأخته أجاتا في إجازة المدارس. وتاسو لم يصل سنه لدخول المدارس، وهي لا بد أن تنتهي من غسيلها لكي تكشف عند الطبيب، فآلام الحمل تتعبها ولا بد أن تخلي دورة المياه قبل أن يصحو جوزيف شقيق زوجها وزوجته.

استحمت إيلين، ووضعت الملابس التي في حاجة لغسيل في الطشت النحاسي الكبير، ووضعته فوق النار. إلى أن تنتهي من تمشيط شعرها؛ تكون الملابس قد غلت، فتبدأ هي في الغسيل، وحتى لو استيقظ زوجها - أو جوزيف شقيقه - فسوف تخرج طشتها في الفسحة الواسعة لتكمل غسيلها.

مشطت إيلين شعرها من منتصفه، وعقدت ضفيرتين كبريين ثم بدأت الغسيل. البيت كله نائم، وهي وحدها التي استيقظت.

بعد أن انتهت من بعض الغسيل، حملته فوق رأسها وصعدت فوق سطح البيت. وضعت الإناء فوق جدار متآكل عريض يطل على السلم، فوقه حبل غسيل ينشرون فيه الملابس الداخلية التي لا يريدون أن يراها المارة أو الجيران.

صعدت فوق الجدار المتآكل لكي تصل إلى الحبل العالي، رفعت ذراعها وشدت الحبل، لكن قدمها زلّت، صرخت فوقعت مثل زرع البصل فوق البسطة الرخامية العريضة، تعلقت ساقاها في الفضاء ورأسها دكت الرخام.

صحا زوجها إسكندر من نومه عند سماع صرختها، وصحا أشقاؤه الثلاثة، جوزيف الذي يشاركه الشقة التي يسكنها والآخران يسكنان الدور الأول العلوي.

إيلين ملقاة في غيبوبة، والغسيل متناثر فوق جسدها، جاء الجيران من البيوت المجاورة، قالوا:

- اتصلوا بالإسعاف.

وضعت زوجة جوزيف رأس إيلين فوق ساقها ونادتها باكية:

- إصحي يا إيلين.

زامت إيلين، فبكت امرأة أخرى:

- إصحي يا أم نيقولا.

وبكت البنت أجاتا، صرخت، أما الولد نيقولا فظلّ لوقتٍ طويلٍ غير مُدركٍ لحقيقة ما يحدث حوله.

تأخرت الإسعاف، فحملها التاكسي إلى مستشفى العظام بالحضرة، فلقد تكسرت جمجمتها.

كانت ساندرا – أم إيلين- مع ابنها ماريو - في اليونان، فهي عادة ما تذهب مع ابنها لزيارة اليونان في إجازة المدارس.

أرسلوا إليها بأن تأتي، وإن كان شعرها مبلولًا، فلتجففه في الإسكندرية.

***

قال جورج ميخاليدس لزوجته آسيا في قلقٍ وحزنٍ:

- ارتدِ ملابسك على عجل فسوف نذهب لمستشفى العظام، فقد وقعت إيلين ابنة أختي ساندرا من فوق السطوح وهي تنشر الغسيل ...

تابعت آسيا إيلين، هي من سمّاها تقريبًا، فساندرا – أمها – أكبر من جورج ميخاليدس بسنواتٍ كثيرة، فأمها ماتت، وظلّ والدها بلا زواج، خشية أن تأتي زوجة تسيئ لابنته الحبيبة، لكنه بعد سنواتٍ كثيرة قضاها بلا زواج، تزوّج وأنجب جورج وابنًا آخر أصغر منه.

عادت ساندرا من اليونان، أصرّت على الذهاب لمستشفى العظام رغم وصولها في وقتٍ متأخر من الليل، اضطر أخوها جورج ميخاليدس أن يقدّم نفسه للحراس هناك، بحقيقة عمله في البوليس، تشاور الحارس مع زملائه، ثم سمح لجورج ميخاليدس وأخته ساندرا بالدخول رغم أن الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحًا.

الصدمة كبيرة على ساندرا، فابنتها لا تتكلم، حلقوا شعر رأسها كله، شعرها الأسود الناعم الجميل، قصوه وألقوا به في الزبالة، تحسّست ساندرا رأس ابنتها، وجهها بدا نحيلًا ورفيعًا وكأنه ليس برأس ابنتها، لولا العينان الواسعتان اللتان تنظران حولها في حيرة، والشفتان الممتلئتان الصغريان ما صدقت ساندرا أن هذا رأس

ابنتها.

فاجأت المرأة أخاها جورج ميخاليدس، وزوجها استيليو الذي يبكي في صمت، بتحملها، لم تبك ولم تصرخ كما ظنوا، كل ما فعلته أن انحنت وقبلت وجه ابنتها.

عادوا جميعًا، وبقيت ساندرا مع ابنتها، لن تتركها، ليتها ما سافرت.

اليوم التالي جمعة، موعد الزيارة الرسمية لمستشفى العظام.

نساء كثيرات، يجلسن بجوار سجن الحضرة المقابل للمستشفى.

يتابع الولد نيقولا المساجين وهم يحملون الأجولة ويعودون ثانية، وجندي يمسك عصا رفيعة وطويلة يقودهم بها، كان يمازحهم ويضحك معهم، وبعض أقارب المساجين يجلسون بجوار النساء، يحدثون المساجين أقاربهم، الجندي يجعل المساجين يقرفصون بعد العودة من نقل الأجولة.

حتمًا المساجين اندهشوا من عدد الزائرات الزائد عن الحد هذه المرة.

عندما فُتحت أبواب زيارة المستشفى، سارت الجموع ناحية الباب الحديدي الكبير، نساء كثيرات وأطفال ساروا في موكبٍ حتى العنابر البعيدة.

ملابس إسكندر متهدلة، وعيناه حمراوان من آثار الدموع.

كانت إيلين وحدها في الحجرة، أول مرة يراها نيقولا هكذا، العينان هما المستيقظتان فيها، ما عدا هذا، فكل شيء فيها قد مات، وساندرا تئن أمامها، هي لم تبرح المستشفى من ليلة أمس، ولم تذق ماءً أو طعامًا.

وقف استيليو – والد إيلين– بجوار النافذة يبكي في صمت، كان يعتصر الدموع من عينيه، وأحيانًا وضعت يديها فوق جسد نيقولا وتاسو وبكت، فبكى الطفلان مثلها.

تحرك وجه إيلين، الجسد كله تحرك وأراد أن يقوم من مكانه، كل الحاضرين أحسوا بما تريد أن تقول، وصلتهم الرسالة بأنها تخاف من مصير أطفالها الصغار بعدها.

رددت ساندرا:

- في عينيه، أولادك في عينيه.

ثم توقف كل شيء، خرجت الجموع بعد أن انتهى المشهد المأساوي. كيف يحدث هذا، أي حقيقة علمية حتمت عليها أن تنتظر حتى يأتي أطفالها لتموت بعد أن رأتهم، ماذا لو تأخروا عن الحضور، أكانت ستظل هكذا بلا موت؟!

انهار إسكندر، أغمى عليه في حديقة المستشفى، أسرعوا إليه بالماء، رشوه به، وصاح أخوه جوزيف به غاضبًا:

- عيب يا إسكندر، لا تفضحنا.

عيب أن يبكي وهو الرجل من أجل امرأته، لكنه بكى بحرقة، وسار بمساعدة أخيه جوزيف وآخر لا يذكره نيقولا الآن.

***

أسرع الرجال إلى بيوتهم، ركبوا الترام الذي يمر من أمام المستشفى، ويقف في محطة مصر القريبة من البيت.

أما النساء والأطفال فقد ساروا من المستشفى في أمبروزو حتى بيت ساندرا في راغب باشا، كانوا

يصرخون ويبكون، البنت أجاتا تسير وسطهم، تردد من وقت لآخر:

- يا أمي.

ويتبعها الولد نيقولا، لكنه ينسى أحيانًا فينشغل بالنسوة اللاتي يتحدثن في أمور عادية وكأنهن في نزهة، لكن البنت أجاتا تدفعه بكوعها في عنف صائحة:

- إبك، إبك، فقد ماتت أمك.

فيعود نيقولا للبكاء بصوتٍ مرتفعٍ.

الطريق طويل، فيحس بالتعب والرغبة في أن يخرج من صفوف النساء النائحات.

بقي إسكندر في سوق عقداية، لم يعش في حجرتيه - كما كان قبل موت زوجته - وإنما انتقل إلى حجرتي أخيه جوزيف، نام معه فوق السرير، وشاركت زوجة جوزيف أطفالها فراشهم، وبقي أطفال إيلين لدى جدتهم ساندرا، وصاروا من هذه اللحظة أطفال المرحومة.

تأتي المعزيات للسؤال عنهم، فتجيب ساندرا من وقتٍ لآخر:

- أطفال إيلين الغالية.

انتهى العزاء الذي ظلّ ثلاثة أيام بلياليهم، قضتهم ساندرا في السرادق، لا تبرحه إلا في المساء وبإلحاح من أهل البيت، خاصة أخوها جورج ميخاليدس، فالرجال سيأتون بعد قليل للعزاء.

حزن الشارع كله، كل الأفراح تأجلت، ساندرا مسكينة، أطفالها يموتون في صغرهم، لم يبق لها سوى فتاة واحدة وطفل لم يتجاوز العاشرة، لكن الموت لا يريد أن يتركها لحالها فقد لاحق ابنتها التي كبرت وصارت امرأة، تزوجت وأنجبت.

أراد إسكندر أن يسترد أطفاله، يعود بهم إلى حجرتيه في سوق عقداية، لكن ساندرا كانت حازمة:

- أطفال إيلين لن يعودوا ثانية لسوق عقداية.

لم تدخل ساندرا البيت ثانية، بل لم تمر في شارع ابن الهايم ثانية، ولن تزور مستشفى العظام مهما كان المريض عزيزًا لديها، فليس عندها أغلى من إيلين التي ماتت فيها، وكانت لا تذكر اسمها قط، بل كانت ترثد المستشفى الملعونة.

***

ظلّ البيت الذي تسكنه ساندرا دون إعداد طعام، فكل سكانه أقارب، ممنوع الاقتراب من البوابير، كل ما يأكلونه جاهز، يشترونه من السوق: جبن وحلاوة وبيض مسلوق.

بعد أن ضاقوا بهذا، أرسلوا البنت أجاتا والولد ماريو والولد نيقولا إلى شارع شجرة الدر القريب - وهو مليء بدكاكين الطباخين لوجود عمال المعمار في مقاهيه بكثرة - اشتروا طبيخًا باللحم، حملوه إلى البيت.

وذات مرة انسكب طبيخ الملوخية، وكان يغلي في حلة الطباخ الكبيرة جدًا، فوق يد الولد ماريو فألقى بالطبيخ على الأرض من شدة الألم، وصرخ، وظلّت يده تؤلمه لعدة أيام.

***

تغير الحال لدى آسيا، زوجة جورج ميخاليدس منذ أن أتى أطفال إيلين إلى البيت، فالمفروض أنهم يعيشون في شقة جدتهم ساندرا أخت زوجها، لكنهم في الحقيقة يقضون معظم أوقات النهار في شقة آسيا بالدور الأرضي، فزوجها جورج ميخاليدس يشفق على أخته ومصيبتها، وكلما اشتكت آسيا من وجود أطفال إيلين في شقتها، يقول لها في أسى وحزن:

- أختي ساندرا غلبانة.

أنجبت آسيا ابنا يصغر نيقولا بسنة وشهور قليلة - تعرف هي هذا جيدًا، فهي تتابع ما يحدث في العائلة باهتمام - ثم أنجبت ابنتين أخريين. هي – بصفة عامة – لا ترتاح لأهل زوجها جورج ميخاليدس، لكنها تتعامل مع ساندرا – أخت زوجها الكبيرة – باحترام، خاصة أن ساندرا تحسن معاملتها ومعاملة أبنائها، لكنها كانت مرتاحة قبل أن تموت إيلين ويأتي أولادها للعيش لدى جدتهم ساندرا، يااااه لقد ضاقت آسيا من وجودهم.

مسئوليات زوجها جورج ميخاليدس في عمله بالبوليس زادت، فهم يرتاحون لتصرفاته، فقد دخل الخدمة بوظيفة مترجم، لإجادته اللغتين الإنجليزية والفرنسية، تعرف آسيا أن زوجها خالٍ من الشهادات الدراسية، لكنه ذكي ونبيه؛ لذا وصل إلى درجة وكيل قلم، ثم عُيِّن رئيسًا لأقلام الضبط في بورسعيد، وقد أعجب به هرفي باشا - حكمدار القاهرة - فعينه مأمورًا للضبط في العاصمة، يعني هو يترك آسيا بالأيام الكثيرة، يقضيها في القاهرة وحده، يتركها لأخته ساندرا وابنها ماريو- وأجاتا وتاسو ونيقولا- أبناء إيلين الراحلة- كل الأطفال ينصاعون لآسيا، إلا الولد نيقولا، فهو يرد عليها كلمة بكلمة؛ لذا، هي تكره وجوده، وتضيق به إذا اقترب منها، يلعب أحيانًا مع ابنها، فيتشاجران معًا، فيدفع نيقولا ابنها، يوقعه على الأرض، ويضربه، فهو الأقوى، فتصيح به غاضبة مدافعة عن ابنها، فيرد عليها، تشكوه لزوجها جورج ميخاليدس، فيقول لها في ود:

- لا تنسي أنهم أطفال يتامى.

***

ذهب إسكندر لساكن في بيت يمتلكه قريب جدًا من بيت ساندرا قائلًا له:

- تعلم ما حدث لي، يجب أن أكون وأطفالي قريبين من بيت جدتهم.

واستجاب الساكن، فأخلى حجرتيه اللتين يسكنهما في الدور الأرضي ليسكنهما إسكندر مع أطفاله الثلاثة.

لكن ساندرا لم تترك أطفال إيلين، إذا ما ابتعدوا عنها بعض الليالي تظل ساهرة طوال الليل، وترى وجه ابنتها الشاحب النحيل يلومها لأنها فرطت فيهم.

عندما كان نيقولا في شقة جدته ساندرا، سمع امرأة - قريبة لوالده - تقول لساندرا:

- إسكندر يبحث عن زوجة يتزوجها.

فغضب نيقولا وسبَّ المرأة وبكى.

قررت ساندرا أن ترحل لليونان هي وزوجها وابنها ماريو، تركت سكنها لأخيها جورج ميخاليدس قائلة:

- لا أستطيع احتمال مصر كلها دون ابنتي إيلين.

قال جورج ميخاليدس في صوتٍ خافتٍ معاتبًا:

- لكنك وعدت إيلين ابنتك ألا تتخلي عن أولادها.

بكت قائلة:

- هذا ما يحزنني، لكن زوجها إسكندر قرَّر أن يتزوج، ولن أستطيع أن أرى أخرى تحل محل ابنتي الوحيدة.

***

نامت آسيا سعيدة، فقد انتقلت للسكن في الشقة العليا التي كانت تسكنها ساندرا - أخت زوجها- تنهدت في سعادة، فسوف ترتاح من وجود أجاتا وأخوها تاسو، خاصة الولد نيقولا الذي لا تطيق قربه منها ... يااااه الحياة بدونهم أكثر سعادة.

فوجئت آسيا بسماع صوت الولد نيقولا يأتي من الشارع، فاندهشت وطلت من بلكونتها، ففوجئت به يلعب البلي مع أطفال الحارة كالعادة، فرددت في نفسها بأسى:

- ألن أرتاح من رؤية هذا الولد؟! يااه صوته يضايقني، ماذا أفعل لكي يبتعد عن المنطقة كلها، يذهب لأصحاب جدد في البيت الذي يسكنه والده إسكندر الآن.

ضاقت من سماع صوته ووجوده أمامها فأسرعت بدخول شقتها، وفجأة سمعت صوته يناديها:

- زوجة خالي آسيا، زوجة خالي آسيا.

طلّت، فقال لها وهو يشير لباب البيت:

- الأطفال كسروا زجاج البيت.

باب البيت من ضلفتين فيهما حديد متشابك مغطاة بقطع زجاج صغيرة متعددة الألوان، أطفال الشارع يتراشقون بالطوب، فجاءت طوبة صغيرة في قطعة زجاج ملونة في ضلفة الباب المثبتة التي لا تتحرك، فكسرتها، تساقطت ذرات الزجاج الملون على بلاط مدخل البيت، أرادت آسيا أن تقول للولد نيقولا: «لا شأن لك بهذا».

ثم تحركت خطوتين ناحية شقتها، ثم عادت ثانية قائلة في حدة وغضب:

- أنت الذي كسرت هذا الزجاج.

فصاح:

- صدقيني، الأطفال هم الذين كسروه.

قالت لابنتها:

- اذهبي واستدعي أباك وأخبريه بأن نيقولا ابن إيلين كسر زجاج البيت.

ذهبت الفتاة إلى القهوة القريبة التي يجلس جورج ميخاليدس عليها، فجاء معها، بكى نيقولا عندما رآه آتيًا نحوه:

- صدقني يا خالي، الأطفال هم الذين كسروه.

فضمه الرجل لصدره وقبله قائلًا في حنان:

- دعك منها.

هذا أدى لأن يبتعد نيقولا عن المنطقة كلها، عاش في عالم آخر مختلف، ونسيته آسيا بمرور الوقت.

***

عاش إسكندر أيامًا صعبة، ينام على سريره ذي العمدان السوداء العالية هو وابنه نيقولا، فيتقلب إسكندر في أسى وحزن، يحرك السرير من مكانه من شدة تقلبه، مما يؤثر على نيقولا ويوقظه من نومه، فقرر أن ينام على كنبته العربي في الحجرة الكبيرة، فسأله إسكندر:

- لماذا تنام بعيدًا عني؟

أجابه قائلًا:

- هذا أفضل.

أحس الجميع بتعاسة إسكندر وأساه لفقده زوجته، فهو يعمل في ورشة كوستا القريبة من ضريح أبي

الدرداء -منطقة مزدحمة باليونانيين- أنشأ الخواجة كوستا فيها أكبر ورشة خشب باركية في الإسكندرية، واشتهرت ورشته على مستوى مصر كلها، فأتاه كبار القوم- بشوات وممثلون كبار - ليتفقوا معه على تركيب خشب الباركيه في شققهم وفيلاتهم، وكان كوستا مجدًا في عمله إلى أبعد الحدود فسمح للصبية والسيدات ليساعدوا في العمل بورشته.

كوستا لا يهمه سوى عمله، فلو لاحظ اهتمام عامل من عمال ورشته بزميلته التي تعمل معه - ووجد أن هذا لن يضر بعمله - لا يتدخل، وإذا وجد أن هذه العلاقة ستكون سببا في زيادة إنتاج ورشته؛ يباركها ويشجعها.

وإسكندر – بالنسبة لكوستا - ليس مجرد يوناني مثله، بل هو ابن خاله، وأم كوستا كانت شديدة الاهتمام بأخيها وأولاده، فأورثت أبناءها هذا الحب. فسمح كوستا لأبناء خاله - الذين جاءوا بعده من اليونان - بالاستفادة من المخلفات التي تنتج عن صناعة الخشب، فعليهم أن يخرجوها بعيدًا عن الورشة اتّقاءً لشر الحريق، ويبيعونها كما يشاءون.

يمتاز إسكندر - ابن خاله - بقوته، فكوستا ما زال يذكر رؤيته له وهو يضع عرقين خشب ويربطهما بحديد بَتن عريض وقوي، يثنيهما بسهولة ويسر ليثبت العرقين معًا، فشهق كوستا وتعجّب ممّا يرى.

لاحظ كوستا أن كثيرًا من السيدات اللائي يعملن في الورشة يتقربن من إسكندر ويلتصقن به، راغبات في الزواج منه، فهو الآن أرمل وقوي وتعدى الثلاثين بقليل.

فعندما انفرد كوستا به قال:

- إسكندر، إبحث لك عن زوجة، هذا هو الحل.

نظر إسكندر إلى كوستا ولم يعلّق بشيء.

فأحس كوستا بالأسى، وسأل عماله، عن فتاة أو امرأة تصلح زوجة لإسكندر.

واقترب عامل يسكن شارع العطارين من إسكندر قائلًا له:

- عندي طلبك، ابنتي تصلح زوجة لك.

أشاح إسكندر بيده وحمل قفة بها نشارة الخشب على كتفه بسهولة وابتعد عنه، لكن كوستا استدعى إسكندر قائلًا له:

- إذهب لبيت هذا العامل وشاهد ابنته، لو أعجبتك تزوجها.

اقترب من إسكندر أكثر من صنايعي في ورشة كوستا، وطلبوا منه أن يوافق على هذه الزيجة، ليريحوا الفتاة المسكينة من سوء معاملة زوجة أبيها لها، فقد طلّق العامل أمها، وتزوّج غيرها، فأذاقت البنت العذاب، فهي تدفعها بقدمها في الصباح لكي توقظها من نومها، وتضربها كثيرًا، والفتاة غير قادرة على الرد عليها، فوالدها ينحاز دائمًا لزوجته.

ذهب إسكندر لشارع العطارين وشاهد فيفيان - الفتاة المعروضة عليه ليتزوجها.

عالم جديد، فإسكندر قبل أن يأتي بزوجته فيفيان، غيّر شكل حجرات الدور الأرضي كلها، بنى دورة مياه خاصة به وبأسرته لكي تبتعد زوجته عن باقي سكان الدور الأرضي.

يذكر نيقولا عندما جاءت فيفيان - زوجة أبيه – فتاة طويلة القامة وشاحبة ووجهها أبيض يميل للصفرة، كانت تخفي وجهها في خجل، فأضحكت أجاتا ونيقولا وتاسو وبعض أقاربهم، فتاة تقترب من سنّ العنوسة، فعرضها أبوها على إسكندر لكي يريحها من عذاب زوجته، ويحميها من العنوسة التي كادت تقترب منها، ورضيت هي بأن تتزوج رجلًا كبيرًا في السن وعنده ابنة وولدان.

***

نظر جورج ميخاليدس إلى زوجته آسيا وهما يتناولان إفطارهما:

- أفكر في دعوة أبناء إيلين – ابنة أختي – ليعيشوا معنا، لينفرد إسكندر – أبوهم – بزوجته الجديدة.

نظرت آسيا بعيدًا، ثم قامت من أمام المائدة قائلة:

- إفعل ما تشاء.

جاءت أجاتا وأخواها نيقولا وتاسو، عاشوا سبعة أيام في بيت خالهم جورج ميخاليدس.

تذكر آسيا يوم أن جاءوا، كان زوجها جالسًا على الكنبة، وتقدموا، أجاتا في الأول، وخلفها نيقولا وتاسو، قال جورج ميخاليدس:

- سلموا على زوجة خالكم.

اقتربت أجاتا وقبلت آسيا، فهما صديقتان منذ زمن بعيد، لكن نيقولا ابتعد وراقب الموقف من بعيد، فأسرع تاسو وصافحها، فقال جورج ميخاليدس:

- سلِّم على زوجة خالك يا نيقولا.

سار نيقولا نحوها، فوجدها قد لوت رقبتها بعيدًا، فابتعد... وسمعها تقول في صوت خافت: القلوب مسلمة.

تذكر آسيا هذا الأسبوع الصعب عليها، أجاتا تساعدها في أعمال البيت، وتقترب منها تحدثها، والولد تاسو يلعب مع ابنها إبراهيم ومع ابنتيها، لكن نيقولا شارد معظم الوقت، أو جالس في الفراندة يتابع المارة، أو ينظر من النافذة على الشارع.

تنظر آسيا إليه بطرف عينها، تقدّم الشراب إليهم بعد تناول الطعام، تمسك بكوب نيقولا، تود لو حدثته، لكنها لا تقدر، تضعه أمامه دون قول.

***

يذكر نيقولا والده – بعد أن تزوج – وضح لكل من رآه إنه قد تغير، فلم يعد يزفر في أسى وحزن، وعاد اللون الأحمر لوجهه، واتسعت ابتسامته، وأن التعاسة زالت عن وجهه، فقد ارتدى جلبابًا أبيض وشبشبًا من جلد بنيّ، وسار في زهو من البيت إلى القهوة التي يجلس عليها، وأخذ يتردّد على هذه القهوة مرات عديدة في اليوم، كأنه يريد أن يحس معارفه بأنه أصبح عريسًا.

ترك رأسه بلا غطاء، شعر رأسه أسود فاحم، لكن حدث شيء غريب ومفاجئ، فقد إبيض شاربه فجأة، شعر جسده كله أسود فيما عدا هذا الشارب. فشعر لحيته ما زال أسود اللون.

***

عدم تدخُّل كوستا في العلاقات التي تتم بين عماله وعاملاته - ما دام هذا لا يضر بعمله - أدى لانتشار هذه العلاقات داخل الورشة، وكان كوستا حادًا في هذا الموضوع، فإذا وجد عاملًا عنده ينشغل بزوجته الثانية - التي تزوجها على زوجته الأولى – وأن هذا يعطله عن أداء عمله، يقف وسط صالة ورشته الكبيرة ويصيح بأعلى صوته: كله بالطول، كله بالطول.

وإذا بلغه أن صنايعي عنده يفكر بالاقتران بزوجة أخرى على زوجته - وهذا قد يؤدي لتعطله في عمله - يستدعي هذا الصنايعي لمكتبه ويجلسه أمامه، ويحدثه بصوت وقور وهادئ:

- يا ابني كله بالطول، كله بالطول.

ويحكي المقربون من كوستا إن هذا الموضوع أرقه وشغله تمامًا، فقد سافر لكل بلاد العالم، وراسل كبار الشخصيات بلغاته الثلاث التي يجيدها - الفرنسية والإنجليزية واليونانية - وأنفق أموالًا طائلة، لكنه لم يعثر على ضالته، لم يصل لامرأة عضوها التناسلي بالعرض وليس بالطول.

تذكّر رحلته للبحث عن هذا اللغز، والده الذي أسس ورشة خشب الباركيه، كان يقضي سهراته في كلوب محمد علي، يجالس كبار رجال الدولة، حكى له عن جلساته مع البرنس أحمد فؤاد.

يحكي أحمد فؤاد لمن حوله – خاصة عندما يتأثر بكئوس الخمر الكثيرة التي يشربها – فقد كان ملحقًا عسكريًا بسفارة تركيا بفيينا عندما علم ابن أخيه – عباس حلمي – الذي كان ما زال يدرس هناك – بوفاة والده الخديو توفيق. فأصرّ أحمد فؤاد أن يترك عمله بفيينا ويعود مع ابن أخيه إلى مصر، على أمل أن يعينه في منصب كبير.

قابلا في السفينة التي نقلتهما إلى مصر، اليونانية لاميا، تقربت منهما، كانت شديدة الجمال، لم تبد اهتمامًا بعباس حلمي – رغم علمها بأنه يسافر لمصر ليكون حاكمًا لها، تقرّبت أكثر من أحمد البرنس فؤاد، ودعتهما لبيتها في الإسكندرية، ليرتاحا من سفر السفينة، ثم يستأنفا السفر بعد ذلك إلى القاهرة. وقابلا في هذه الساعات القليلة البرنسيسة شويكار التي تقرّبت أيضًا من أحمد فؤاد، لم تبد اهتمامًا بعباس حلمي الذي سيكون حاكمًا لمصر.

يحكي أحمد فؤاد عن مأساته، فهو ابن الخديو إسماعيل الذي أراد أن يطور مصر، فعاقبوه وصادروا أملاكه وأمواله، فأصبحت أسرته أفقر فرع في كل عائلة محمد علي باشا.

يتنهد البرنس أحمد فؤاد من الحسرة، فالحاجة للمال هي التي دفعته للزواج من البرنسيسة شويكار، كانت مبهورة بشبابه ووسامته، أنجب منها ولدًا سماه إسماعيل - على اسم والده - لكن الولد لم يعجبه الحال فمات صغيرًا، فأنجب ابنة، هي فوقية أكبر بناته، واستطاع أن يحصل من البرنسيسة شويكار على توكيل بإدارة أموالها وأملاكها، واكتشفت البرنسيسة أنه كان يأخذ أموالها لينفقها على عشيقته اليونانية لاميا، كان يترك القاهرة ويسافر للإسكندرية ليقابلها.

يستأنف أحمد فؤاد حكايته لهم: حدث ما تعرفونه جميعًا، والذي حكت عنه مصر والبلاد المجاورة عندما أطلق أحمد سيف الدين – شقيق الأميرة شويكار - رصاص مسدسه نحو جسدي بكلوب محمد علي بالقاهرة، فكاد يقتلني، فأمرني أخي الكبير – حسين كامل – الذي كان سلطانًا وقتها – أن أطلّقها، فتركت لها القاهرة كلها وعشت في الإسكندرية قريبًا من اليونانية لاميا، طاردتني شويكار بخطاباتها وتوسلاتها، قالت لي إعتبرني جارية اشتريتها بفلوسك، لكنني لم أسأل عنها.

أبلغوا البرنس أحمد فؤاد بأن أخاه السلطان حسين كامل مات فجأة، وابنه الأمير كمال الدين رفض أن يحكم مصر، فلم يجدوا سواه سلطانًا، أبلغوه بهذا وهو حزين لنفاد أمواله، (يحكي المقربون من أحمد فؤاد، أنه فكر جديًا في الاستجابة لطلب طليقته شويكار، وعودته إليها كزوج ليستفيد من أموالها الطائلة، لو قبل كمال الدين – ابن حسين كامل الحكم – لعاد أحمد فؤاد صاغرًا لشويكار، رغم أنه لم يحبها يومًا، وتحامل على نفسه وتعامل معها كأي رجل يتعامل مع زوجته، مالها الكثير سيجعلها جميلة أمامه)، جاءت الرسالة من القصر الملكي وهو يجلس في كلوب محمد علي في الإسكندرية ينعي حظه العاثر. يقولون له: رفض كمال الدين حسين – ابن عمك - العرش، وتم الاتفاق عليك لأن تكون سلطانًا بدلًا منه).

من يصدّق أن البرنس المفلس الذي كان يخسر في القمار ولا يجد ما يسدد به خسائره، ويشرب على الحساب أصبح سلطانًا فجأة.

يحكي والد كوستا عن منطقة أبي الدرداء، كانت فيها ورشة الخشب الباركيه أول ورشة ليوناني، لم يكن فيها يوناني سواه.

زار الملك أحمد فؤاد الإسكندرية بعد أن تحوّل من سلطان لملك، طلب أن ينقلوه لكلوب محمد علي ليستعيد ذكرياته هناك، قابل رجلًا نوبيًا - كان يسقيه خمرًا على الحساب، وعندما أبلغوه بأنه أصبح سلطانًا كان هذا النوبي يسأله بمبالغ ليست قليلة، فلم يطالبه بها، قال له: أنا مسامحك ما دمت أصبحت سلطانًا.

يقول البعض إن أحمد فؤاد عيّن هذا النوبي في بنك كبير في الإسكندرية، جعله رئيس السعاة هناك، هو الذي يعين السعاة في البنك، ويحدّد لهم أجورهم.

وطلب الملك أحمد فؤاد مقابلة الرجل الآخر الذي كان يدير ماندة القمار، وما زال أحمد فؤاد مدينًا له بأموال كثيرة، كان يخسرها كل ليلة، منحه أحمد فؤاد أرضًا واسعة في الأزرايطة بناها عمارة شاهقة هناك.

البرنسيسة شويكار فوجئت بزواج أحمد فؤاد من نازلي، فتذكرت اليونانية لاميا - امرأة عملاقة، لا يستطيع أن يراها رجل إلا ويفتح فمه مندهشًا لمدى جمالها - لماذا تركته لاميا لنازلي هذه، لماذا لم تطارده كما كانت تفعل وهو متزوجها؟!

فجاءت شويكار إلى لاميا في الإسكندرية وقابلتها، عرضت عليها عرضًا مغريًا، ستعطيها الكثير من المال مقابل أن تفسد العلاقة بين أحمد فؤاد وزوجته نازلي.

أنفقت البرنسيسة شويكار أموالًا طائلة لكي تعيد أحمد فؤاد إليها، إصراره على البعد عنها أصابها باكتئاب، فسافرت لأوربا لكي تُعالج نفسيًا، وكان العلاج هو البحث عن أزواج جُدد، فتزوّجت بعد أحمد فؤاد رجالًا كثيرين، فكان أحمد فؤاد يقول عنها: إنها تغيّر أزواجها، كما تغيّر فساتينها.

لكنها لم تنس أحمد فؤاد، فقالت لنفسها: ما دمت قد فشلت في الإيقاع به فسوف أفسد حياته مع زوجته نازلي التي أخذته مني.

فأنفقت شويكار مبالغ كثيرة للاميا، وأعدّت سيناريوهات لكي تتقابل مع الملك أحمد فؤاد.

الذين عملوا في إدارة شويكار لغرض إفساد العلاقة بين أحمد فؤاد وزوجته نازلي، أوجدوا مكانًا للقاء لاميا به، يقول البعض إن هذا اللقاء حدث بعد أن كبر الملك وشاخ، فأهدى منطقة أبي الدرداء كلها للاميا إعجابًا بجمالها النادر، وأيضًا لكي لا تفضحه وتكشف عن عجزه في التعامل معها.

ويقول والد كوستا - الذي عاصر الأحداث عن قرب - إن لاميا هذه كانت مختلفة عن باقي نساء العالمين، وأن من تعاملوا معها اندهشوا من تفاصيل جسدها، وهي سبب انتشار أسطورة أن هناك نساء قليلات تشريح جسدهن مختلف، فعضوهن الأنثوي بالعرض وليس بالطول.

لم يندهش أبو كوستا لتأثير لاميا على كل اليونانيين الذين يعيشون في مصر، فالمرأة اليونانية أثرت أكثر في التاريخ اليوناني في مصر، فقد كانت تاييس عشيقة للإسكندر الأكبر، ثم تنازل عنها لقائده الأكبر بطليموس الذي صحبها إلى مصر وأجلسها على العرش، فكانت الجدة الأولى لملوك البطالسة، وكانت كليوباترا آخر أحفادها، وها هي لاميا تغتصب منطقة مترامية الأطراف قريبة من محافظة الإسكندرية، وهبها أحمد فؤاد – ملك مصر - لها، مقابل ليالي حمراء قضاها معها، ويقول البعض إنها كانت ليلة واحدة لا أكثر، فقد نظر أحمد فؤاد لجسد لاميا العاري فصعق مما رأي، وعندما طالبته بأن يهديها كل هذه المنطقة الحيوية في الإسكندرية، نظر لجسدها العاري قائلًا: تستحقين أكثر من ذلك.

كان يقضي أحمد فؤاد سهراته في بيت لاميا، يحتضنها ويدور بها في قاعة بيتها، وتغني له أغاني يونانية قديمة يحب سماعها، ويقولون إنها ماتت فجأة وهو محتضنها قبل أن تنتهي من أغنيتها، الشارع الذي تقع فيه ورشة كوستا من ممتلكات لاميا التي أهداها لها الملك أحمد فؤاد.

ما يحكيه كوستا قد مرت عليه سنوات كثيرة جدًا، فقد مات أحمد فؤاد – الملك - وماتت لاميا، وورث ابنها هذه الرقعة المترامية الأبعاد، يعرف ابنها أن أمه حصلت على هذه الأرض بجهدها، ولجمالها النادر؛ لأن

بها معجزة تستحق أن تكافأ من أجلها، وهذا ليس غريبًا حدوثه، فهناك من خلق الله قلبه في اليمين، بدلًا من اليسار، وهو يعيش وهذا لا يؤثر على تصرفاته.

تاييس جدة كل اليونانيات في مصر، حتمًا كانت تتمتع بالمعجزة التي وضعها الله في حفيدتها لاميا.

وشيء آخر كان يجمع بين كل اليونانيات اللائي أتحدث عنهن هنا، كُن يمتزن بالفم الواسع والرقبة الطويلة.

-4-

يذهب عبده رشوان- مساعد إسكندر- كل صباح لبيت معلمه لأخذ مفتاح مخزن نشارة الخشب، ويعيده في آخر الليل، وسعدية هي التي تتعامل معه، تقف وتحدثه.

فوجيء إسكندر بعبده رشوان - يطلب منه الزواج من سعدية.

يعلم إسكندر أنها كانت متزوجة من حسني بائع حبّ العزيز واللب والسوداني، وقد كفرت بالحياة معه، ولا يعلم هل هو طلقها أم لا.

يأخذ عبده رشوان أجولة النشارة الناعمة من ورش الخواجة كوستا، ويضيف إليها الماء، ويبيعها لأصحاب الدكاكين والمقاهي ليرشونها على البلاط العاري بعد تنظيفه.

تزوّجت سعدية من عبده رشوان، أسكنها في بيت أمه، فكانت تقضي معظم الوقت في بيت آسيا وساندرا، وفي المساء تعود مع زوجها إلى بيتهما.

عادت سعدية ذات يوم إلى بيت آسيا، وامتنعت عن العودة لبيت عبده رشوان، قالت آسيا لها:

- لماذا يا سعدية؟

- لن أعود إلى أمه ثانية، لو يريدني يجد لي سكنًا خاصًا بي.

جاء عبده رشوان في المساء وطلب من زوجته العودة معه إلى البيت، لكنها امتنعت.

فقالت آسيا غاضبة:

- ماذا بكِ يا سعدية، كل زوج ترفضينه؟

-لو يريدني يخصّص لي سكنًا خاصًا بي ... ولو كوخ صغير.

اقترب عبده رشوان من معلمه – إسكندر – قائلًا له:

- لماذا لا تصنع لي كوخًا فوق سطح بيتك.

- لكن ... ...

قالت زوجته إيلين:

- لو كان ممكنًا، فابن لهما كوخًا، فإنا في حاجة لسعدية، وأنت في حاجة لزوجها عبده رشوان.

فأرسل إسكندر إلى محمود علبة - صانع الأكواخ المشهور- ليبني كوخًا من الصفيح فوق سطح بيته الذي لم يسكنه للآن، فإيلين تتحدّث كثيرًا عن اليوم الذي ستنتقل فيه من سوق عقداية وتعيش في بيتهم الذي اشتروه حديثًا، تحلم إيلين بأن تخصص حجرة مستقلة لابنها نيقولا، ليذاكر فيها دروسه. خاصة أن هذا البيت قريب جدًا من بيت أمها ساندرا وخالها جورج ميخاليدس.

***

تسمع سعدية صوتًا تعرفا جيدًا، لكنها كذبت نفسها أول الأمر، فأصاخت السمع جيدًا، فتأكد لها أن هذا هو صوت زوجها الأول حسني، ينادي على حبّ العزيز وعلى اللب والسوداني، هل جُن الرجل حتى يأتي لمطاردتها إلى هنا؟!

سارت من كوخها حتى سور السطح وطلّت منه، فتأكد لها أن هذا هو حسني، جاء من أجلها.

وقف نيقولا ليشتري لب وسوداني من هذا الرجل، فسأله:

- تسكن هذا البيت؟

- إنه بيتنا.

- تعرف ساكنة اسمها سعدية؟

- أعرفها.

- كانت زوجتي واختلفت معي وعدت للبيت فلم أجدها.

- يعني هي متزوجة رجلين معًا الآن؟!

مطّ الرجل شفتيه في أسى، ثم نادى على بضاعته وابتعد.

يجلس حسني على أفريز الرصيف على ناصية الشارع وعربته الصغيرة أمامه، يتابع الرجال الذين يدخلون لبيت إسكندر، الشيخ جابر- رجل مسن يعرف حسني إنه كان يسكن في بيت أم سعدية بغربال، فكثيرًا ما زار أم سعدية، وشاهد هذا الرجل في الشقة التي تسكنها.

يعيش الشيخ جابر وحده في حجرة صغيرة ملاصقة لحجرة أم سعدية.

يذهب كل صباح إلى مدافن العمود ليقرأ على الموتى هناك، كانت سعدية تحكي لحسني كثيرًا عنه وهي تضحك، فالكثير من أقارب الموتى، كانوا يصيحون فيه ويسبونه لأنه يخطئ في قراءة القرآن، لكنه يكسب كثيرًا، ويستعينون به في سرادقات الموتى، عمره ما قرأ في سرادقات الرجال في المساء، وإنما يأتي في صباح اليوم التالي للدفنة – التي تطلق عليها النسوة هناك اسم «الصبحة» فيجلس في الشادر أو داخل البيت ليقرأ ويوعظ النساء، ثم يأتي في الفرق بعد يومين، وفي اليوم الأخير، وفي كل مرة، يفتح منديلًا كبيرًا لتضع النسوة القروش فيه مساعدة له، هذا غير أجرته من أهل الميت، يكسب الشيخ جابر كثيرًا من قراءته في المدافن ومع النسوة عقب الوفاة، فيذهب بهذه الأموال إلى أم سعدية، لينفقها عليها، فهو مفتون بالنساء، تحكي سعدية عنه وهي تخفي فمها من شدة الضحك، فقد رأته في عزاء سيدة قد ماتت، فقرأ ووعظ النسوة، ثم سأل:

- أين ابنة المرحومة التي ماتت؟

فرفعت امرأة يدها قائلة:

- أنا ابنتها.

فنظر ليدها باهتمام، ثم رجع للخلف قائلًا في اعتراض:

- لا، أنتِ لست في جمالها، لقد كانت يدها بيضاء ومربربة.

فقالت واحدة في الخلف:

- أنت جاي تقرأ وتوعظ، ولا جاي تبصبص؟!

وشاهد حسني في يوم آخر أبو الوفا – ابن الشيخ جابر – هو يمتلك دكانًا في سوق غربال، ويقولون إنه يبيع فيه الحشيش سرًا، ولو أن الشرطة لم تقبض عليه قط، فقد جاءوا كثيرًا – طبقًا لرأي مرشديهم – وفتشوا ملابسه وكل شيء في دكانه، فلم يجدوا شيئًا، يقول البعض إنه يخفي الحشيش في عكازه الخشب.

كان يسكن أبو الوفا في البيت الذي تسكنه أم سعدية، وما زالت زوجته تعيش معه، لكنه لا يستطيع البعد عن سعدية، أما عن ساقه المقطوعة، فقد حدث هذا منذ سنوات بعيدة، وهو يقفز لترام رقم 8 الذي كان يمر في شارع راغب باشا، فقد وقع تحت عجلاتها، وانقطعت ساقه.

يصعد أبو الوفا درجات سلم بيت إسكندر، ثلاث أدوار حتى يصل لسطح البيت، ويدق على كوخ سعدية،

وقد اشتكى سكان الشقة الوسطانية من دقات عكاز أبو الوفا فوق سطح البيت، فقد اخترق العكاز طبقة الإسمنت، ثم اخترق الخشب تحته، وفوجئ سكان الشقة الوسطانية بالعكاز يطل عليهم وهم في الصالة الواسعة، فأرسلوا إلى إسكندر في بيته في سوق عقداية، ليأتي ويرمم ما أفسده هذا العكاز.

لم يلتق أبو الوفا بأبيه الشيخ جابر قط في كوخ سعدية، فلو تقابلا سيتشاجران من أجلها، وقد حدث أن جاء أبو لوفا بينما كان الشيخ جابر عندها، فأخفته سعدية في الناحية الأخرى من الكوخ، فمحمود علبة - صانع الأكواخ الماهر- صنع كوخ سعدية، بصالة تؤدي لكوخين معًا، كأنها شقة من حجرتين.

ورأى حسني الولد رمضان، وهو من سكان بيت أم سعدية أيضًا، يدور الشوارع والحواري بعربة يد مناديًا: روبابيكيا.

يشتري كل الأشياء التي تريد سيدات البيوت التخلص منها: كروانة صاج مصدية، أو إطار صورة، أو براد شاي كبير، أو كتب قديمة ... أي شيء، يشتري هذه الأشياء بقروش قليلة، وأحيانًا يأخذها من النساء بلا ثمن، فهن تُردن التخلُص منها، ويقف بها في بياصة الشوام بعد صلاة عصر كل يوم، يبيعها بأثمان عالية، رمضان معه نقود كثيرة، ينفقها على البنت سعدية.

وقف إسكندر لهؤلاء ومنع دخولهم بيته، وصفع الولد رمضان على وجهه، وهدده بإبلاغ الشرطة لو جاء للبيت ثانية.

وقد تقابل إسكندر مع ساكن في البيت المجاور، فقال الساكن له:

- إننا نتابع ما تفعله هذه الساكنة من قبل أن تأتي أنت وتسكن بيتك، وكنا نرمي كوخها بالطوب من بيتنا (فالبيت الذي يسكنه الرجل أعلى من بيت إسكندر).

قالت سعدية لسكان البيت وهي تبكي:

- ليس بيني وبين هؤلاء الرجال سوى كل خير، فهم جيران أمي في سكنها، وكل ما يفعلونه معي هو شرب الشاي الذي أصنعه لهم.

يلعب عبده رشوان القمار بما يكسبه من بيع نشارته الناعمة في قهوة من مقاهي جبل ناعسة، وعندما يخسر يخاف من العودة لبيته، فيستجدي صاحب القهوة لكي يسمح له بالبقاء في القهوة للصباح، فلو ذهب لسعدية دون نقود، ستفعل فيه كل شيء سين.

***

يكسب جورج ميخاليدس كثيرًا في هذه الأيام، فهو يأخذ مبالغ مختلفة من ضباط البوليس نظير ترقيتهم أو تثبيتهم، ومن المعتقلين السياسيين للإفراج عنهم ومن المتحررين في الأعراض لإطلاق سراحهم.

زاد حجم الرجل بعد الحرب العالمية الأولى، والمضاعفات التي نتجت عنها حتى أنه تم خلال شهورها الأولى نفي 49 تركيًا و16 مصريًا إلى جزيرة مالطة، فضلًا عن افتتاح معسكر اعتقال في الجيزة وفي أبي قير، كان يُودَع بهما أي شخص يتعرّض لأقل شبهة، وكان تحت إشراف بعض معاوني جورج ميخاليدس وعلى رأسهم: محمد محمود أفندي، والصاغ فرانشيسكو لوسكيانو، ونكّل جورج ميخاليدس بشباب الحزب الوطني، ولفّق التهم للأبرياء، وطغى وألحق الضرر والأذى بالعناصر الوطنية، لكن زوجته آسيا تحتاج لنقود كثيرة، فهي تُكثر من شراء الملابس، وتدعو إلى بيتها الكثير من رجال المجتمع في البوليس وغيره، وتُكثر من تقديم الأطعمة الشامية – التي تجيد طهيها – إليهم، فما أن حصلت على الثلاثمائة جنيه من نائلة بنت عبد الله حتي أنفقت بعضها، وعندما عاد زوجها في المساء أخبرته بذلك، فلم يعترض.

حاول محمد محمود مع هرفي باشا الحكمدار مرة ثانية، ففوجئ بغضب أكثر من المرة الأولى، وهدده لو فتح هذا الموضوع معه ثانية.

وكان لا بد أن يعيد جورج ميخليدس الثلاثمائة جنيه لنائلة بنت عبد الله، لكنه اكتشف أن آسيا - زوجته - أنفقت منهم عشرين جنيها كاملة، فقال لها:

- ردي لها كل ما معك، وهي لن تعترض، وسأبحث عن طريقة أخرى للإفراج عن الغربي وابنه وعن باقي المختفين.

***

عندما تحدثوا في البيت عن حمل فيفيان – زوجة إسكندر الجديدة، اقترب نيقولا منها قائلًا:

- القابلة التي تولّد النساء لا تحمل مشرطًا في يديها، فمن أين يأتي المولود.

فنظرت إليه شاردة للحظات ثم ابتعدت.

استيقظ نيقولا في ذلك الصباح على آلام فيفيان، كان أبوه قد ذهب لعمله مبكرًا، هو وحده فوق كنبته التي ينام عليها، وفيفيان على الأرض والقابلة منحنية عليها وبجوارها كثير من نساء الأسرة، فقالت إحداهن:

- أخرجوا نيقولا من هنا.

قام هو وجلس فوق الفراش وتابع المشهد باهتمام، فقالت أخرى:

- إنه صغير، ووجوده لن يضر.

ازداد ألم فيفيان، فهي أول مرة تلد، رآهم وهم يخرجون أخاه من أحشائها، وعرف وقتها من أين يخرج المولود.

نامت فيفيان على السرير محتضنة ابنها الأول، وجاءت نسوة البيت لتبارك لها، قالت امرأة من ساكنات البيت لفيفيان مازحة.

- سوف يتعامل إسكندر معك ثانية، وتولدي مرة أخرى.

(قالت المرأة قولًا يصعب كتابته هنا، لكن قولها هذا أجاب عن سؤال ظلّ نيقولا يفكر فيه لمدة طويلة، ما الشيء الذي يسبب هذا الإنجاب؟).

***

خلت حجرتان تطلان على الشارع في الشقة العليا في البيت الذي يمتلكه إسكندر – فصعدت الأسرة إليهما، سكنوا فيهما، أول مرة يسكنون في حجرة بها بلكونة، بيتهم في سوق عقداية ليست فيه بلكونات.

ينام نيقولا فوق كنبة عربي، بينما أخوه تاسو ينام على سرير صغير، وإسكندر وزوجته يقضيان الليل في الخزنة – حجرة صغيرة لها شباك يطلّ على الشارع – والثلاث حجرات المتبقية من الشقة تعيش في كل منها أسرة بأكملها.

بجوار الحجرة التي ينام فيها نيقولا وتاسو حجرة صغيرة الحجم، جاءت امرأة بيضاء طويلة وعريضة سكنتها، قالت إن اسمها أم حسان، لكن سكان البيت لم يروا لها سوى ابنتيها، يقولون إنها أنجبت أول ما أنجبت، ولذا سمته حسان، لكنه مات في طفولته، فتعوّد جيرانها أن ينادوها باسمه.

بين الحجرة التي ينام فيها نيقولا وتاسو؛ وحجرة أم حسان، باب مغلق من ضلفتين وشراعة مغطاة بزجاج يكشف ما يحدث في الحجرة الأخرى، يعني من الممكن أن يتابع نيقولا ما يفعله زوج أم حسان بزوجته.

جسد المرأة قوي، فطلبت من ساكنات الشقة أن يصارعنها، رفضت الكثيرات، أحسسن بأنها طويلة وعريضة وقادرة على هزيمتهن، لكن واحدة نازلتها، فغلبتها أم حسان، استطاعت أن ترميها على الأرض وتركب على

جسدها.

يذكر نيقولا جلسات نساء الشقة وتأتي سيدات أخريات يسكنّ في الدور الأرضي أو فوق سطح البيت، يتحدثن في مسائل عجيبة، وتشترك زوجة أبيه معهن في ذلك الحديث العجيب، تقول امرأة نحيفة تسكن الدور الأرضي إنها تعرف سيدة، نزلت من فوق سريرها فجأة، فاشتبكت النشابة - التي يفردون بها العجين - بجسدها، اخترقته. وحذرت المرأة النحيفة، كل الموجودات من خطورة وضع النشابة - أو أي شيء مشابه - بجوار سرير النساء، فقد وجدوا صعوبة في إخراج العصا الرفيعة من جسد المرأة التي وصلت لصدرها فأماتتها.

كان زوج أم حسان يعمل في الفاعل، يخرج في الصباح ويعود قبل المغرب بقليل، يتناول طعامه، ويذهب للقهوة التي يجلس عليها مع بلدياته ولا يعود إلا بعد منتصف الليل، لم يكن أحد من سكان الشقة يسمع صوته، ولم يسمعوا صوت أم حسان وهي تحدثه، وكأنهما متخاصمان.

***

يدخل إسكندر وزوجته فيفيان لحجرتهما الصغيرة في المساء ولا يخرجان منها إلا في صباح اليوم التالي، ولو اضطرًا للاستحمام، يفعلانه داخل الخزنة.

يسمع نيقولا أحيانًا صوت حركات السرير ذي العمدان الرتيبة، بسبب ممارسة الجنس بين إسكندر وزوجته.

أحسّ نيقولا ذات ليلة بآلام شديدة في أذنه، والده بعيد عنه، منذ أن جاءت فيفيان زوجته، وهو لا يهتم بشيء غيرها.

أخذ نيقولا يصيح من شدة الألم:

- آه يا أذني.

سمعته أم حسان، فدقت باب الحجرة، فتح تاسو الباب لها، فجلست على السرير ووضعت رأس نيقولا على فخذها للصباح، ذهب نيقولا في الصباح لمستشفى في محطة مصر، فوجدوا في أذنه خراجًا سبّب له كل هذه الآلام.

دخلت أم حسان إلى حجرة نيقولا، ففيفيان - زوجة أبيه - تقضي معظم وقتها مع النسوة فوق سطح البيت. يتحدثن عن غرائب الأفعال، حكايات شبيهة بما حدث للمرأة التي اخترقت النشابة جسدها فأماتتها، وتفلي كل واحدة رأس الأخرى؛ فدخلت أم حسان لتسأل عن نيقولا، ماذا حدث لأذنه.

اجتمعت نساء الشقة في الصالة الواسعة - كل واحدة جلست على طبليتها التي تمدها وقت تناول الطعام - بينما نيقولا يغني بصوت مرتفع وهو يستحم في الحمام المشترك، فشردت أم حسان بعيدًا، وأعلنت لهن جميعًا:

- نيقولا وصل لسن الرجولة، واضح هذا من تغيُّر صوته.

فردت عليها امرأة تسكن البيت من قبل أن يأتي إسكندر ويسكنه:

- لا، هو ما زال صغيرًا.

هذه الفكرة سيطرت على أم حسان، فانشغلت بنيقولا طوال الوقت، تنادي عليه لأسباب واهية، أن يدق لها مسمار في الحائط، أو يضبط لها مصيدة الفئران، أو تدعوه ليشرب الشاي معها، فتلصق جسدها بجسده.

نامت على بطنها في مدخل الحجرة التي ينام فيها مع أخيه تاسو، وجلس فوق مؤخرتها، وثنى لها ساقيها، وربطهما بحزام والده العريض، وأخذ يضرب على حافتي قدميها بطرف الحزام.

جاءت في ذلك الوقت فتاة تسكن الشقة، فرأت هذا المشهد الغريب والمثير، فأحست بالخجل وجرت نحو حجرتهم، فصاح بها:

لماذا تجري هكذا، تعالي اركبي ورائي.

فأفاقت أم حسان وقامت فزعة:

- ماذا تفعل، ماذا تفعل؟

ولمت ملابسها وأسرعت إلى حجرتها، لم تخرج منها طوال الوقت.

سمع نيقولا صوت زوجها الواهن الضعيف، ثم خروجه للقهوة ككل ليلة.

دخل إسكندر وفيفيان حجرتهما المسماه بالخزنة، وأغلقا الباب عليهما لبناما، واستغرق الولد تاسو في نومه، وابتعدت أجاتا عن البيت بعد أن تزوجت، وبقي نيقولا وحده يقرأ فوق كنبته، فسمع دقات مرتعشة على الباب، فاندهش، من الذي سيأتي في هذا الوقت المتأخر؟

فتح الباب فوجد أم حسان أمامه تنظر إليه برغبة واضحة، قال:

- ماذا تريدين؟

ارتبكت للحظات، ثم قالت وهي تمسك يده التي ما زالت تمسك الكتاب:

- علمني الصلاة.

فسار ناحية كنبته، كان الكتاب مفتوحا على الصفحة التي كان يقرأها. وفُتح باب الخزنة فجأة، وطلَّ إسكندر نحوهما في دهشة ليرى من الذي جاءهم في ذلك الوقت المتأخر، فجرت أم حسان نحو حجرتها وأغلقتها عليها.

اقترب إسكندر من ابنه متسائلًا:

- ماذا كانت تريد منك؟

- تريدني أن أعلمها الصلاة.

فأخذ إسكندر يسب ويلعن، ثم قال وهو يستعد لغلق باب الخزنة ثانية:

- لم تخرج من بيضتك وتأتي بامرأة لتعلمها الصلاة؟!

أراد نيقولا أن يرد عليه، بأنه لم يستدعها، لكنه لم يجده وسمع صوت المزلاج وهو يصطدم بالباب في عنف.

اقتربت أم حسان منه أكثر، سمعته يغني أغنية لعبد الوهاب، فاقتربت منه وطلبت منه أن يغنيها لها.

لاحظ إسكندر أن سيدات كثيرات يرتدين الملاءات اللف، ويدخلن حجرة أم حسان الصغيرة، ويمكثن بها لبعض الوقت، يضعن المساحيق في وجوههن ويتزين، ثم يخرجن من الحجرة بملابس عارية، ويعدن آخر الليل، فتفتح أم حسان باب الشقة لهن، فيمسحن المساحيق عن وجوههن ويعدن لبيوتهن مرتديات الملاءات اللف.

قالت امرأة تسكن الشقة لفيفيان وكان نيقولا جالس في الحجرة وقتذاك:

- إنهن يدفعن لأم حسان مقابل ذلك.

وما أن علم إسكندر بهذا، حتى صاح وهدَّد، قالت المرأة التي تسكن الشقة:

- أخبر زوجها بما تفعل.

فأشاح إسكندر بيده قائلًا:

- زوجها لا يقدر عليها.

السيدات اللائي يأتين إلى أم حسان، كن جارتها في المسكن السابق، يخرجن من البيت بالملاءات اللف بعد ذهاب أزواجهن للعمل، يذهبن إلى منطقة اللّبان، تنتظرهن نائلة بنت عبد الله، تتابعهن في اهتمام، وتنادي الطرمة – مساعدتها – لتقدمهن للعمل الخفيف، فلديها قسم خاص للهواة، زوجات يعملن في السر والخفاء بعيدًا عن أزواجهن، تدفع لهن الطرمة مبلغًا أقل، فيسعدن به، ويعدن لبيوتهن في سرور.

يتابع إسكندر السيدات اللائي يدخلن بالملاءات اللف، ويخرجن من حجرة أم حسان الصغيرة بملابس براقة، ووجوههن مزوقة، وعندما يعدن في الليل، يمسك ملابسهن ويهددهن بإبلاغ الشرطة لو جنن ثانية لهذا البيت.

يبكين ويقبلن يديه، تقول إحداهن:

- لو علم زوجي بهذا، سيقتلني.

يخرجن من البيت والدموع قد أفسدت المساحيق التي وضعوها فوق وجوههن.

في الصباح حملت أم حسان متاعها القليل وتركت البيت، وقد أخبرت نيقولا بمكان سكنها الجديد، وطلبت منه أن يزورها فيه.

سكنت أم حسان في زقاق سد متفرع من شارع الشموس.

كانت فيفيان تطالبها بنقود اقترضتها منها وإيجار الحجرة التي لم تدفعها، فطلبت فيفيان من نيقولا أن يذهب إليها.

يذكر نيقولا ما حدث، دلوه في البيت على مكان حجرتها، فذهب إليها، حجرة صغيرة، وباب مغلق بلا مزلاج، فدفعه فرآها نائمة على سريرها الصغير كاشفة عن ساقيها العاريتين. أيقظها، رحّبت به، ذكّرها بالنقود التي تطالب بها فيفيان، فقالت:

- ظننتك جئت من أجلي وليس من أجل نقود زوجة أبيك.

استأذنت منه لدخول الحمام والاستعداد للقائه، لكن ابنتيها جاءتا قبل أن تعود، فانتهى اللقاء.

***

تشاهد آسيا أجاتا من وقت لآخر في مناسبات عائلية قليلة، حفل زفاف، أو خطوبة، أو احتفال لميلاد طفل، كبرت البنت أجاتا، صارت آنسة الآن، تسأل آسيا كلما قابلت أجاتا عن أخيها نيقولا، تقول آسيا:

- لم أره منذ سنوات طويلة.

لم تره منذ أن اتهمته ظلمًا بكسر زجاج باب البيت.

فتجيبها أجاتا:

- أصدقاؤه بعيدون عن الحي كله.

تندهش آسيا، فهي كانت تكرهه، فلماذا تسأل عنه هو بالذات، وتتمنى لو عرفت أخباره، ما زالت تتذكّر رده عليها، وضربه لابنها الذي يصغره بعام وعدة شهور، تتنهد في أسى، فهناك أشياء في حياتها لا تفهمها، فكثيرًا ما حلمت بالولد نيقولا، إنه يطاردها في نومها كثيرًا، لقد قرأت آسيا قليلًا في كتب علم النفس، وربما أن اهتمامها بنيقولا سببه شدة كرهها له.

تسرح آسيا بعيدًا عن ساندرا وعائلتها وعن زوجها جورج ميخاليدس، بل تنسى أحيانًا أنها تزوجت وأنجبت.

يقول من يعرفها عن قرب إنها حزينة منذ أن شنقوا حبيبها إبراهيم وتشرد في عز سعادتها، تبعد بعيدًا جدًا، تتذكّر الشاب الطويل الذي كان يسرع الخُطى وهي تتبعه في صعوبة، ليتها احتفظت برسائلها إليه، ليته أعادها إليها قبل أن يفعل فعلته ويعدموه.

عندما أنجبت ابنها الأول، فرح زوجها جورج ميخاليدس به، وسألها عن اسمه، فقالت:

- أريد أن اسميه إبراهيم.

تذكر آسيا هذا الموقف جيدًا، فقد كانت ما زالت تعاني من أثر آلام الولادة، وابنها بجوارها، وزوجها سعيد، لكنه شرد عندما ذكرت اسم إبراهيم، صمت للحظات، ثم قال:

- اسم جميل.

تتمنى لو سألت زوجها:

- هل كنت تعلم أنني أحببت إبراهيم هذا، الذي قتل رئيس وزراء مصر، والذي كان السبب لأن يرقوك ويجعلوك المسئول عن المكتب السياسي الجديد؟

أمر زوجها يحير، فهو غامض في كل شيء، تفكّر أحيانًا في أن تثير هذا الموضوع معه، تسأله:

- هل كنت تعلم أنني أحببت إبراهيم هذا؟

لكنه سرعان ما يغيّر الموضوع كلما حاولت الاقتراب منه.

أصبح زوجها مهمًا في البوليس، ليس على مستوى الإسكندرية فقط، وإنما على مستوى مصر كلها، تحس آسيا أحيانًا أن جورج - زوجها - يعرف أنها لم تحبه يومًا، وقد سمحت له أن يعاشرها معاشرة الأزواج، لكن دون حماس، لقاؤه بها أتى بولد وابنتين، في الثلاثة حُسن وجمال آسيا، لكن - للأسف - حملن من أبيهن قصر قامته.

مشغولة آسيا بأعباء عمل زوجها، فهو يشركها في كل تصرفاته، وكأنها زميلته في العمل، تعرف أنه يكسب كثيرًا من عمله هذا، فالذين يشرفون على بيوت الدعارة في مصر كلها، يدفعون إليه مبالغ شهرية مقابل أن يحمي العاملين معهم من نساء ورجال، وأن تحمي الشرطة زبائنهم أيضًا، يأتي زملاء جورج ميخاليدس ورؤساؤه أيضًا إلى بيته ويجالسونه ويجالسون زوجته، وتقدّم آسيا إليهم الحلويات الشامية التي تعلّمت صناعتها من أبيها وأمها، وتدعوهم للأكلات الشامية الأخرى التي لا يأكلونها إلا عندها.

***

يحس جورج ميخاليدس بأن زوجته تتعامل معه بلا حماس، فيحاول أن يرضيها دائمًا، يعطيها أموالًا دون أن تطلبها، فاشتهرت بين أسرتها وأسرته بتقديم الهدايا القيمة إليهم.

ذهبت لتبارك لأجاتا ولادتها لأول أبنائها، حملت خادمتها سعدية «سبتًا» مليئًا بالسمن والعسل والمُغات وأشياء أخرى تلزم في سبوع الوالدة.

أجاتا نائمة فوق سريرها، وآسيا تجلس في الصالة الواسعة، كل النساء مشغولات بأعمال تخص أجاتا، ودخل نيقولا - عائدًا من مدرسته - أول مرة تراه آسيا منذ أن اتهمته بكسر زجاج باب بيتهم، والأسبوع الذي عاشه في شقتها عقب زواج أبوه إسكندر، شردت آسيا وتاهت عندما رأته، اقترب منها وصافحها، هي كما هي لم تتغير، لكنه تغيّر، لقد صار شابًا، عيناه واسعتان عسليتان، وشفتاه ممتلئتان صغيرتان، وقامته طويلة، وجهه وجسده ذكرها بحبيبها إبراهيم، فقد أصبح قريبًا من شكله، وجهه وجسده.

تناول نيقولا طعامه ودخل الحجرة وحده، نام فوق سريره ذي العمدان العالية وأخذ يتصفح مجلة، فقامت آسيا من وسط نساء العائلة فجأة، ودخلت حجرته، أمسكت طرف ثوبها وكشفت عن كل ساقيها، فوجئ نيقولا

بعريها أمامه، اقتربت منه وألصقت جسدها بجسده قائلة:

- تعالَ لتذاكر مع ابني إبراهيم.

ترك المجلة التي كان يتصفحها قائلًا لها:

- لكنني أكبر من ابنك، يعني لا تنفع المذاكرة معه.

التصقت به أكثر ونظرت إليه برغبة واضحة:

- المهم أن تأتي لأراك.

لوحت له بابتسامة وهي ذاهبة لبيتها.

ما الذي يحدث لنيقولا، فآسيا هذه كانت لا تطيق وجوده.

ظلّت آسيا تفكر في الولد نيقولا، عادت للكتب القديمة التي قرأتها قبل أن تتزوّج جورج ميخاليدس وتنشغل بأعباء أسرتها، تذكرت فيدرا التي بليت من إلهة العشق - أفروديت – فأحبّت الشاب الصغير- هيبوليت ابن زوجها - بكت آسيا من شدة الوجد والأسى، فنيقولا في سن أبنائها، فكيف تحبه كل هذا الحب؟!

هي شخصية درامية بلا شك، فقد اختارتها الآلهة لكي تحب إبراهيم الذي قتل رئيس وزراء مصر، وأدخل مصر في عالم الجريمة السياسية، مِمّا أدى لخلق إدارة جديدة في البوليس لتتبّع هذه الجرائم، ولكي تكتمل الدراما، تتزوج هي الرجل الذي استفاد من حادثة القتل، فليس غريبًا أن تختارها الآلهة أيضًا لتعذبها بهذا الحب غير المتكافئ، تختار لها الآلهة شابًا كانت لا تطيق وجوده، لتتعذب لو ابتعد عنها.

***

ذهب نيقولا إلى بيت آسيا، قابل ابنها إبراهيم، تحدثًا مغا، شغل إبراهيم حجرة، كان نيقولا يجلس فيها قبل أن تترك ساندرا جدته الإسكندرية وتعود إلى اليونان.

رحّبت آسيا به كثيرًا، زوجها جورج ميخاليدس اندهش لتغيرها، فقد كانت لا تطيقه، فما الذي جدّ؟!

فكّر الرجل في أشياء بعيدة، فقد تكون ترغب في أن تزوجه ابنتها، ضاق جورج بتفكيره هذا، فالولد ما زال صغيرًا، وابنته تصغره بعدة أعوام، لكنه ارتاح لتغيُّر معاملتها لحفيد أخته الحبيبة ساندرا.

يسافر جورج كثيرًا إلى القاهرة، يقضي بها أيامًا كثيرة، يلومه رؤساؤه لأنه ما زال يعيش في الإسكندرية، رغم أن القاهرة في حاجة إليه أكثر، فيتحجج بأشياء واهية، لا يستطيع أن يقول لهم إن زوجته آسيا ترفض العيش في القاهرة نهائيًا، وهو لا يستطيع أن يغضبها.

إبراهيم – ابن جورج وآسيا – لم يكن صديقًا لنيقولا، فقد تربّى على كره كل عائلة والده التي تكرهها أمه، لكن اهتمام آسيا بنيقولا قرّبه إليه الآن.

يأتي نيقولا من مدرسته فيجد إبراهيم في انتظاره، قائلًا له:

- أمي تنتظرنا في الشارع العمومي.

يترك نيقولا كتبه ويذهب معه إليها، يجدها تبتسم له من بعيد، تشتري أشياء لأولادها وتشتري هدية لنيقولا، ويعودون إلى البيت.

تطلب منه أن يخلع ملابسه ويرتدي بيجامة من ملابس ابنها، فيجد صعوبة في التحرك بالبيجامة، فجسده أكبر من جسد ابنها، يدخل هو وإبراهيم للشرفة للنظر إلى الشارع، يقف نيقولا حافي القدمين، فتأتي آسيا وتجلس مقرفصة فوق قدميه، فيحس بقشعريرة ودفء بجسده كله، ينظر إلى أسفل، فيجدها تتابعه بنظرة تخيفه وتهز كيانه.

أحس نيقولا برغبتها فيه، فقرّر أن يقاوم ذلك، فخاله جورج ميخاليدس طيب، ويحبه، ولم يسئ إليه يومًا، فكّر في البعد عنها، لا يذهب لبيتها، فابنها إبراهيم أصغر منه سنًا، ولم يكن صديقه يومًا.

***

علّق إسكندر ورقة إيجار على باب البيت، فجاء شاب يسكن قريبًا من البيت، سأل عن الحجرة المعلن عن إيجارها، نظر إليها ثم قال:

- مناسبة.

سألته فيفيان:

- ستأتي بعفشك لتسكنها؟

قال:

- لا، خالي هو الذي سيسكنها.

جاء رجل مسن، ومعه فتاة اسمها نجفة، ظنوها أول الأمر ابنته، واتضح بعد ذلك أنها زوجته، امرأة ريفية تتحدّث مع كل نساء الشقة بابتسام وودّ، زوجها يدير دكان ابن أخته في منطقة اللّبان، يبيع فيه البقالة ومنتجات الألبان، يخرج الرجل في الصباح ولا يحس سكان الشقة بعودته، فهو يعود في وقت متأخر من الليل، واضح أنه تزوجها منذ فترة وجيزة، ولم يسبق له الزواج من قبل، كانت تتحدّث عنه بحبّ وتثني عليه وعلى أفضاله عليها، وكأنها فتاة معجبة بأبيها.

تابعت نجفة نيقولا باهتمام، داعبته وضحكت معه، قالت له إنها قبل أن تتزوّج، كانت تصحو من نومها براحتها، لكن الآن لا بد أن تصحو مبكرًا لإعداد ما يطلبه زوجها.

تطورت علاقة نيقولا بها، ووصل لأن يضربها في أي مكان من جسدها، فتجري منه ضاحكة، وتتابعه فيفيان زوجة أبيه في ضيق وأسى، رأته فيفيان يمسك نجفة من قدميها ويرفعها لأعلى فيعري كل جسدها، وتضحك نجفة سعيدة بأفعاله.

فتدخل فيفيان حجرتها وهي تتمتم في ضيق، أمسكت نجفة طرف بنطلونه وشدته لكي يشرب الشاي معها، فدخل إليها، انحنى وقبلها، فضحكت قائلة:

- سأعلمك كيف تكون القبلة.

وقبلته، أول مرة يقبّل نيقولا امرأة، شرد للحظات، تابعها وهي سعيدة ومنتشية، هي أكبر منه بسنوات قليلة، يعني كان من الممكن أن تكون زوجته، لا زوجة هذا الرجل المسن.

فكرت فيفيان في أن تحدّث إسكندر زوجها، بما يفعله ابنه نيقولا بنجفة أمام كل سكان الشقة، يمازحها وتجري منه ضاحكة وسعيدة، لكنها خافت من غضب زوجها إسكندر، فهو يضيق بابنه ولا يطيقه الآن.

يعود إسكندر من عمله، فيجد نيقولا مضطجعًا فوق كنبته التي ينام عليها يقرأ في كتاب أو مجلة، فيزفر ويعبر عن ضيقه قائلًا له:

- طول الوقت في البيت، ألا تجد مكانًا تذهب إليه؟!

تلوي فيفيان رقبتها بعيدًا، فهي تعرف ما يحسه إسكندر، يضيق من متابعة ابنه الذي كبر لزوجته التي تتحرّك أمامه.

لقد رآها نيقولا وهم يفتحون جسدها عن آخره ويخرجون ابنها الأول، ورآها وهي تعري ساقيها عن آخرهما وهي تعجن الخبز في الطشت الكبير.

يتوقف نيقولا عن القراءة، ويتساءل ما الذي يغضب والده من وجوده في البيت؟ يرتدي ملابسه ويذهب لبيت آسيا، يجد عالمًا مختلفًا، تقوم آسيا من مكانها فرحة عندما تراه، أول مرة يجد إنسانًا يرحب به بهذه الحفاوة والاهتمام، عيناها سوداوان ولون بشرتها كلون اللمبات النايلون، لكن نيقولا يخافها، يتذكر موقفها منه وهو صغير، تداعب بأصبعها راحة يده وهي تصافحه، فيجلس شاردًا متابعًا لتحركاتها وهي تنظر إليه نظرات لم يرها في امرأة من قبل.

يذهب إبراهيم ابن آسيا معه إلى بيته، لقد صار صديقه المقرّب الآن، يدخلان السينما معًا في حفلة التاسعة مساء، يعودان للمنطقة قبل الواحدة صباحًا بقليل، كان الفيلم من أفلام الرعب، ونيقولا لا يحب هذا النوع من الأفلام، يقول لإبراهيم:

- سأنام معك الليلة.

لإبراهيم حجرة مخصصة له، منفصلة عن باقي الشقة، يرتدي بيجامة إبراهيم الضيقة، يقول إبراهيم له:

- لم أرك ترتدي بيجامة في بيتك.

يشرد نيقولا في أسى، فلا أحد يهتم به، يرتدي أي ملابس قديمة عندما يعود من المدرسة، أو يبقى أحيانًا للصباح بالملابس التي عاد بها من مدرسته.

سمعت آسيا ابنها يتحدث في ذلك، فاشترت قماشًا لبيجامتين، وعندما عاد نيقولا من مدرسته، وجد إبراهيم في انتظاره قائلًا:

- أمي تنتظرنا في الشارع العمومي.

فيترك نيقولا كتبه ويذهب معه لمقابلتها، تبتسم له من بعيد، يظن أنها ستركب الترام وتذهب بهما لمكان بعيد، لكنها تحمل لفة هذه المرة، وتأخذهما إلى خياط بيجامات وقمصان، تقول له:

- فصّل لهما هذه البيجامات.

يسألها الحائك:

- ولدالِ؟

تابعت نيقولا باهتمام وود قائلة:

- نعم.

فأشار الحائك إلى ابنها قائلًا:

- ممكن أن تنجبي ولدًا مثل هذا، لكن هذا لا، صعب أن تنجبي مثله (وأشار إلى نيقولا الذي عارض أن تشتري له بيجامة).

فقالت: أنت مثل ابني إبراهيم، (ثم أكملت بصوتٍ خافتٍ وحالمٍ: وأكثر).

يذهب إبراهيم إلى بيت نيقولا، يشاهد ما تفعله نجفة معه، تنادي عليه من حجرتها، فيقول نيقولا له:

- قِف في الشرفة وراقب أبي، دُقّ الباب عليّ إذا رأيته آتيًا نحو البيت.

يغيب نيقولا في حجرتها، يحس إبراهيم بتغيره عندما يأتي إليه، فيقول له:

- أنا خائف عليك من هذه المرأة.

- هي أول امرأة أتعامل معها.

***

جاءت ساندرا من اليونان، ستقضي أسابيع في بيت أخيها جورج ميخاليدس، رحّبت آسيا بها، وجاءت أجاتا من بيتها وجاء نيقولا وتاسو لمقابلة جدتهما.

عادت أجاتا لبيت زوجها، وعاد نيقولا وأخوه تاسو إلى بيتهما، فقال إبراهيم لعمته ساندرا:

- إنني خائف على نيقولا من امرأة اسمها نجفة.

أحسّت آسيا برجفة في جسدها كله، وقالت ساندرا:

- لقد رأيت نجفة هذه في زيارتي الفائتة، ماذا بها؟

حكى إبراهيم ما تفعله بنيقولا، فأحسّت آسيا بنار تشتعل في جسدها كله. قالت ساندرا:

- سأتحدّث مع الده في ذلك.

ذهبت ساندرا لبيت إسكندر، تابعت فيفيان التي حلّت محل وحيدتها، رحّب إسكندر بها، فحدثته عن نجفة وما تفعله بابنه نيقولا.

رمى إسكندر السيجارة التي كان يدخنها في ضيقٍ رأى زوجته فيفيان تنصت للحديث باهتمام، ثم قالت في صوتٍ خافتٍ وهي تنظر بعيدًا عنهما:

- إنه يحملها من قدميها ويرفع جسدها كله لأعلى أمام كل ساكنات الشقة.

قال إسكندر لساندرا:

- أخبري إبراهيم ابن أخيكِ بأن يأخذه في الغد بعيدًا عن البيت.

جاء إبراهيم إليه بعد أن عاد من مدرسته قائلًا:

- سنذهب معًا إلى القباري.

سارا معًا حتى القباري، تحدّث إبراهيم معه في أشياء بعيدة، وتوقفا في شارع بعيد للحظات في انتظار الترام الذي سيعود بهما قريبًا من مسكنهما، فتأخر الترام، فقال إبراهيم:

- ليس هناك داعٍ لركوب الترام، سنسير معًا.

لم يسأل نيقولا عن سبب حضورهما للقباري، فهما لم يفعلا شيئًا.

عادا إلى المنطقة، دخل نيقولا البيت، وإبراهيم ذهب ليخبر عمته ساندرا بما فعل.

فوجيء نيقولا بأن والده قد استدعى زوج نجفة وأخبره بما تفعله زوجته بابنه نيقولا.

بكت نجفة وأقسمت أنها تعتبره مثل أخيها الصغير، فخرجت فتاة من ساكنات الشقة قائلة لزوج نجفة:

- لقد شاهدت زوجتك تدخل حجرة نيقولا بقميص النوم.

خرجت نجفة من البيت باكية ولم تعد إليه ثانية، عاشت في شقة ابن أخت زوجها بشارع الكعبة القريب لحين إيجاد سكن آخر لها ولزوجها، ونظر إسكندر لابنه في أسى، لقد رأى أم حسان تأتي إليه في وقتٍ متأخر من الليل بحجة أن يعلمها الصلاة، وها هي امرأة أخرى تطارده، وفيفيان زوجته صغيرة، وهو يغار عليها من الهواء الطلق.

تابع إسكندر ابنه وشرد بعيدًا، ثم قال له:

- لقد كبرت، ويجب أن تفارقني.

***

عندما عاد نيقولا إلى البيت بعد أن تركته نجفة دخل حجرتها الصغيرة الخالية الآن، نظر إلى جدران الحجرة في إمعان، تذكّر أم حسان- أول امرأة رغبت فيه، وما كان يفعله معها، ثم نجفة ... أول امرأة يقبلها ... فدخلت فيفيان زوجة أبيه إليه قائلة:

- ماذا، تسترجع ذكرياتك مع عشيقتك؟

فابتعد عنها، لكنها أكملت:

- فضحتنا في البيت كله.

صرخ في وجهها:

- ابتعدي عني، لا شأن لكِ بي، أنتِ لستِ أمي.

ضحكت في استهزاء، ترك لها الحجرة التي كانت تسكنها نجفة، ودخل الحجرة التي ينام فيها هو وتاسو أخوه.

لن يذهب ثانية لبيت خاله جورج ميخاليدس، فهو يعرف أن آسيا زوجته تهواه وتطارده، لقد ملّ من مشاكل النساء.

الحياة أصبحت صعبة، والده يضيق بوجوده في البيت، وهو لا يريد أن يجاري آسيا فيما تريد، فأين سيذهب؟!

جاءت ابنة آسيا الصغيرة إليه قائلة:

- أمي تنتظرك في البيت.

قالت فيفيان في استخفاف:

- إذهب إليها.

قال للفتاة الصغيرة:

- إذهبي الآن وسأحضر بعد وقتٍ قصيرٍ.

قالت فيفيان:

- ما الذي يعجب النساء فيك؟

نظر إليها وخرج، سار في الشوارع، لقد قرّر ألا يذهب ثانية لبيت خاله جورج ميخاليدس، لينتهي من كل أزماته، لكن أين يذهب، وكل أبواب الحياة مسدودة أمامه، إنه يفكر في الانتحار.

سار ناحية بيت خاله، المشغول بعمله ويعود متأخرًا، وأيامًا كثيرة يقضيها في القاهرة.

قامت آسيا فرحة عندما رأته أمامها، ضمته لصدرها وقبلته:

- أنت مثل ابني إبراهيم.

جلس على الكنبة، طلبت من أكبر بناتها أن تأتي لها بملابسها، خلعت فستانها، وكشفت عن قميص نومها، الذي يكشف عن الذراعين بالكامل وجزء كبير من الظهر والصدر، لون جسدها أبيض، وجسدها مغر، كانت تفعل هذا وهي جالسة على الأرض لكي لا تكشف عن باقي الساقين.

شرد نيقولا في منظرها هذا، وتاه بعيدًا، قالت له:

- ما دمت غير مرتاح للحياة مع والدك وزوجته ابق معنا هنا، نم مع إبراهيم في حجرته.

منذ أن علمت بعلاقته بنجفة وهي تتقرّب منه أكثر، ولا تريد أن تتركه.

عندما جاء ابنها إبراهيم قالت له:

- نيقولا سيعيش معك هنا في بيتنا.

أومأ ابنها برأسه، لكن نيقولا يرفض هذا، اتفقا على أن يستذكرا دروسهما للصباح، خاصة أن موعد الامتحانات قد اقترب، قدمت إليه جلبابًا من جلابيب زوجها ليرتديه في البيت، وعلّق نيقولا ملابسه على حامل بين السرير وباب الشرفة.

جاء جورج ميخاليدس ومعه أصدقاء عمله، استقبلهم في الحجرة المنفصلة عن الشقة التي يستذكر فيها إبراهيم ونيقولا، أرسل جورج عسكري المراسلة الخاص به ليشتري له زجاجات خمر وأشياء أخرى ترحيبًا بضيوفه.

كان في السهرة خمر وحشيش، فاضطر إبراهيم ونيقولا أن يستذكرا دروسهما في الحجرة الكبيرة، فصعدت آسيا لسريرها ذي العمدان النحاسية العالية، مرّ الوقت وضيوف جورج ميخاليدس ما زالوا في الحجرة البعيدة، ثم سمع نيقولا وإبراهيم صوت جورج ميخاليدس وهو يودعهم، لكنه لم يأت، ما زال في الحجرة وحده، فذهب إبراهيم لمقابلته، وعندما جاء قال لنيقولا:

- أبي سينام مكانه في الحجرة.

رأى نيقولا آسيا تفتح عينيها وتتابعه، ثم وقف إبراهيم قائلًا:

- لن أستطيع السهر أكثر من ذلك، سأنام مع أبي في الحجرة الأخرى، وأنت لو أردت النوم، نم على هذه الكنبة.

رأى نيقولا آسيا تنظر إليه، الجو حار، وهي نائمة بلا غطاء، تقلبت عدة مرات، نامت على بطنها، ابنتها الصغيرة قبل أن تنام، قلبت زجاجة المونكير على ملابسها، فوصل السائل الأحمر لفخذها وفشلت في إزالته، اللون الأحمر صنع لوحة فنية جميلة مع لون بشرتها الأبيض اللامع، تفننت في الكشف عن كل جسدها، كان نيقولا يتعذّب من شدة الإثارة، قال لنفسه ربما تفعل هذا عن غير قصد، تفعله وهي مستغرقة في نومها، فدقّ الباب في عنف، لكنها لم تتغير، الحل هو أن يرتدي ملابسه ويعود لبيته، لكنه خاف من الاقترب منها، فقد تظن أنه يقترب أكثر لمشاهدة جسدها العاري، كما أن والده سيضيق لعودته في ذلك الوقت المتأخر، وقد يرفض أن يفتح الباب له، كما فعل هذا من قبل.

دقّ باب الحجرة وذهب للحمام، ودقه ثانية في عنف عندما عاد، لو كانت نائمة لاستيقظت فزعة من صوت الاصطدام.

ظلّ يتعذب برؤية جسدها الأبيض الجميل حتى أشرقت شمس اليوم التالي.

سألته في الصباح:

- هل عاد إبراهيم ابني وأنا نائمة؟

قال: لا.

***

الوساوس تطارد إسكندر طوال الليل، جعلته غير قادر على النوم، زوجته فيفيان حامل الآن، وهي عندما تكون حامل، تنام معظم الوقت في أي مكان يقابلها في الشقة، تنام أحيانًا في الحجرة الكبيرة، وقد يكون

جسدها عاريًا، فيراه ابنه نيقولا، الذي صار شابًا تطارده النساء.

أي عذاب هذا الذي يتعذبه إسكندر، لو لم تمت زوجته إيلين ما أحس بما يعانيه الآن.

جلس إسكندر فوق فراشه، وتابع فيفيان التي تغطُ في نومها، ثم فتح باب الخزنة، وخرج إلى الحجرة الكبيرة، نظر إلى ابنه تاسو فوق سريره الصغير، ونيقولا متجه بوجهه نحو الحائط فوق كنبته القريبة من باب الخزنة، اقترب إسكندر منه، سمع صوت غطيطه، فابتعد، جلس على الكنبة المقابلة، وأشعل سيجارته، آه، لو ذهب نيقولا بعيدًا عنه، لكن أين سيذهب؟ وليس له سواه، فساندرا جدته عادت إلى اليونان، تعيش فيها هي وزوجها وابنها الوحيد.

يرتاح إسكندر لغياب نيقولا عن البيت، فهو يذهب كثيرًا لبيت خاله جورج ميخاليدس، ليته يبقى عندهم إلى ما لا نهاية، كثيرًا ما خرج إسكندر من الخزنة التي ينام فيها في وقتٍ متأخرٍ من الليل ليدخن سيجارته بعيدًا عن فيفيان التي تضيق برائحة السجائر -خاصة منذ أن حملت - فلا يجد نيقولا فوق كنبته التي ينام عليها، فلا يسأل عنه، فهو يعلم أنه في بيت خاله جورج ميخاليدس. وحتى لو كان في مكان آخر، المهم أن يبتعد عن البيت ولا يتابع زوجته فيفيان وجسدها طوال الوقت.

اقترب إسكندر ثانية من جسد نيقولا، ورغب في أن يضربه بيده القوية فوق قلبه، فوق صدره، يهشم صدره ويميته ... وقتها سيرتاح. تذكّر المثل الشعبي المشهور القائل:

إذا جالك الطوفان، حط عيالك تحت رجليك.

وإسكندر في عز الطوفان الآن، ويا روح ما بعدك روح.

تابع دخان سيجارته المختنق في الحجرة المغلقة، الدخان لا يجد منفذًا يخرج منه فالأبواب والنوافذ كلها مغلقة، ثم عاد إلى فيفيان، هي أكثر بياضًا من زوجته الأولى إيلين التي ماتت، وأكثر طولًا، تذكّر كوستا ابن عمته، وكلماته المشهورة:

- كله بالطول، كله بالطول.

استيقظت فيفيان مبكرًا فوجدت زوجها جالسًا على الكنبة يزفر، وعينيه حمراوين من قلة النوم، فسألته:

- ماذا بك؟

تابعها في أسى، وأسرع إلى دورة المياه، وعندما عاد سألته:

- ما الذي يغضبك مني، هل أسأت إليك؟

قال كلمات غير مفهومة، فسألته:

- أعدُّ لك الفطور؟

أشاح بيده وارتدى ملابسه وخرج.

سار لمنطقة أبي الدرداء، ورشة الخشب ما زالت مغلقة، أول مرة يذهب إسكندر إليها مبكرًا هكذا، الخفير - الذي يحرسها - ينام داخلها. فجلس إسكندر على أفريز الشارع، وعندما جاء كوستا من أول الشارع الضيق، تابع إسكندر من قبل أن يصل إليه مندهشا، قائلًا:

- إسكندر، ماذا بك؟

وقف إسكندر قائلًا:

- لا شيء.

سار كوستا نحو باب الورشة المغلق، دق بابه، ففتحه الخفير من الداخل، نظر كوستا نحو إسكندر – ابن خاله- قائلًا:

- اتبعني يا إسكندر.

جلس إسكندر فوق المقعد، ودخل كوستا ليجلس أمام مكتبه:

- إسكندر، إنك تعاني.

بكى إسكندر، فقام كوستا وضمَّ وجهه لصدره:

- ماذا بك؟

نظر إسكندر إليه ومسح دموعه، سأله كوستا:

- أفطرت؟

- لا أريد شيئًا.

- أنا أيضًا لم أفطر، سأرسل لشراء طعام لي ولك.

قام كوستا ونظر إلى إسكندر في قلق.

وعندما عاد اقترب أكثر من إسكندر وسأله:

- ما الذي يغضبك؟

نظر إسكندر حوله في قلق ثم قال لكوستا:

- تتذكر كلماتك «كله بالطول، كله بالطول».

فضحك كوستا قائلًا:

- ما الذي يقلقك من هذا الموضوع؟!

قام إسكندر، وسار ناحية كوستا، ونظر حوله في قلق، ثم سأله في صوت خافت:

- هل وجدت امرأة عضوها بالعرض وليس بالطول؟

عاد كوستا للخلف وأحس بأن ابن خاله يعاني معاناة شديدة:

- ما الموضوع؟

- لو ذكرته لك لن تصدقني؟

- تحدَّث يا إسكندر، فأنا قلق من أجلك.

وقف إسكندر، واقترب أكثر من كوستا ابن عمته قائلًا:

- وجدته بالعرض يا كوستا، صدقني.

- هل جننت يا إسكندر، لقد سافرت لكل بلاد العالم وتأكدت أن هذا محال، إنها أسطورة لا أكثر.

بكى إسكندر وصاح بصوت مرتفع:

أعلم أنك لن تصدقني، لكن هذا حدث، أول ما رأيتها هكذا كدت أجن، فعدت للنظر ثانية، اقتربت بوجهي منها، فأحسست بالخجل، وشعرت برجفة هزَّت جسدي كله، الخضة أثرت عليَّ في الحال فابيض شاربي الذي كان أقرب شيء منها.

سار كوستا نحو باب الورشة المغلق، دق بابه، ففتحه الخفير من الداخل، نظر كوستا نحو إسكندر – ابن خاله- قائلًا:

- اتبعني يا إسكندر.

جلس إسكندر فوق المقعد، ودخل كوستا ليجلس أمام مكتبه:

- إسكندر، إنك تعاني.

بكى إسكندر، فقام كوستا وضمَّ وجهه لصدره:

- ماذا بك؟

نظر إسكندر إليه ومسح دموعه، سأله كوستا:

- أفطرت؟

- لا أريد شيئًا.

- أنا أيضًا لم أفطر، سأرسل لشراء طعام لي ولك.

قام كوستا ونظر إلى إسكندر في قلق.

وعندما عاد اقترب أكثر من إسكندر وسأله:

- ما الذي يغضبك؟

نظر إسكندر حوله في قلق ثم قال لكوستا:

- تتذكر كلماتك «كله بالطول، كله بالطول».

فضحك كوستا قائلًا:

- ما الذي يقلقك من هذا الموضوع؟!

قام إسكندر، وسار ناحية كوستا، ونظر حوله في قلق، ثم سأله في صوت خافت:

- هل وجدت امرأة عضوها بالعرض وليس بالطول؟

عاد كوستا للخلف وأحس بأن ابن خاله يعاني معاناة شديدة:

- ما الموضوع؟

- لو ذكرته لك لن تصدقني؟

- تحدَّث يا إسكندر، فأنا قلق من أجلك.

وقف إسكندر، واقترب أكثر من كوستا ابن عمته قائلًا:

- وجدته بالعرض يا كوستا، صدقني.

- هل جننت يا إسكندر، لقد سافرت لكل بلاد العالم وتأكدت أن هذا محال، إنها أسطورة لا أكثر.

بكى إسكندر وصاح بصوت مرتفع:

أعلم أنك لن تصدقني، لكن هذا حدث، أول ما رأيتها هكذا كدت أجن، فعدت للنظر ثانية، اقتربت بوجهي منها، فأحسست بالخجل، وشعرت برجفة هزَّت جسدي كله، الخضة أثرت عليَّ في الحال فابيض شاربي الذي كان أقرب شيء منها.

دخل العامل بالطعام لإسكندر وكوستا، الذي ما زال يتابع إسكندر في دهشة.

شرد كوستا فيما قاله إسكندر، فقد أعاد إليه الأحزان بعودته لحديثه عن هذه الأسطورة اللعينة.

إسكندر جعله بفعلته هذه يتذكّر والده، وكيف صارت المنطقة ملكًا لليونانيين.

إنها أسطورة يحكونها ولم تتحقق في أي مكان في العالم- لقد سافر كوستا لأمريكا وكندا وإيطاليا ويسافر كثيرًا لليونان بلده، وسأل كل الأطباء والعلماء عن هذا، فكذّبوا هذا الإدعاء.

قدم كوستا الطعام لابن خاله:

- تناول الإفطار معي يا إسكندر.

- لا أجد رغبة في الأكل الآن.

فصاح كوستا في غضب:

- اسمع كلامي.

مد إسكندر يده وأمسك بالرغيف، فقال كوستا:

- لقد تأثرت بما حكيته لك عن أسطورة كله بالطول وليس بالعرض، فتخيلت ما تخيلته.

ترك إسكندر الطعام وقام غاضبًا وصاح بصوت جعل الكثيرين يأتون لمتابعة ما يحدث:

- صدقني لقد تأكدت من ذلك.

ثم أمسك شاربه الذي ابيض قائلًا:

- وشاربي الذي أبيض فجأة، خير دليل على ذلك.

سار إسكندر بعيدًا، خرج كوستا خلفه، لكن إسكندر ابتعد كانت حالته صعبة للغاية.

ما الذي جعل إسكندر يفكّر في هذا الموضوع، عندما كان يعيش مع إيلين، كان هادئًا ورقيقًا، موت إيلين أفسد حياته.

ترك كوستا الطعام أمامه، إسكندر ابن خاله أقوى رجل في أسرته، وربما في بلدتهم كلها، كان يحمل حديدة تمرين لا يقدر على حملها سواه ويوناني آخر.

مدّ كوستا يده للرغيف الذي تركه إسكندر وشرد طويلًا.

***

يقضي إسكندر وقته حزينًا، يتابع زوجته فيفيان التي يكبر بطنها من وقت لآخر بسبب الحمل في أسى، تطارده الأحلام المزعجة، بأن ما في بطنها ليس منه، وهو أحلامه تتحقق، حتمًا أن ما في بطنها ليس منه، هزّ جسدها في عنف:

- استيقظي وأجيبي عن سؤالي.

تأوّهت من أثر الصدمة والنوم:

- ماذا بك؟

- الذي في بطنك ليس مني.

ضربت على صدرها قائلة:

- وصلت لهذه الدرجة؟!

هزّ جسدها في عنف:

- أجيبي من أبوه؟

صرخت، أيقظت ابنا زوجها اللذين ينامان في الحجرة الأخرى قالت لهما:

- لقد جنّ أبوكما، يتهمني في شرفي.

صرخ إسكندر، وبكى في حرقة:

- إني أتعذّب، لا أنام الليل.

اقترب نيقولا منه:

- اخفض صوتك حتى لا يسمعك الجيران الذين يسكنون معنا في الشقة.

فضربه في وجهه حتى أسال الدم من فمه وأنفه:

- أنت بالذات لا تتدخّل في هذه الأمور.

أسرع نيقولا إلى الحمام ليغسل وجهه من الدم، وبكى الولد تاسو، ما الذي حدث لهم؟!

فكرت فيفيان في الذهاب لبيت أبيها، لكن ذلك صعبًا، فزوجته تسيئ معاملتها، ووالدها لن ينصفها، فاكتفت بالبكاء وصمتت.

الحياة أصبحت صعبة على نيقولا بالذات، فإسكندر لا يطيقه، كثيرًا ما ضربه وهو مستغرق في نومه، وكثيرًا ما شده من رقبته وهو نائم، وألقاه على الأرض، ففكر نيقولا في الانتحار، فهو غير قادر على الاستمرار في هذه الحياة. قرّر أن يتناول كمية من الحبوب ويموت ... بكى وهو يتناولها، لكنه لم يمت، في الصباح وجد التهابًا فوق جسمه كله، وآلامًا شديدة في معدته، حتى الموت فشل في الوصول إليه.

الضوء الوحيد الذي ينير له الطريق الآن هو ضوء آسيا، لقد أرسلها الله إليه - في هذا الوقت بالذات - لكي تحميه وتبعد عنه الانتحار، فهو عندما يذهب إلى بيتها تهب من جلستها مرحبة، لا يراها تفعل هذا مع إنسان غيره، إنه عشق لا حدود له، وكأنه يقرأ قصة عن شاب استطاع أن يسحر امرأة، (يعمل لها عمل).

تأخذه أحيانًا للشقة العليا المغلقة والتي تضع فيها كراكيبها، لكي تنفرد به، ويفعل بها ما يريد بعيدًا عن أطفالها، لكنه كان يبتعد عنها.

انحنت وهي نازلة السلم معه، بالعرض لكي يضطر أن يلمس جسدها المنحني أمامه، لكنه لكي يغيظها أكثر، يقفز من فوق جسدها دون أن يلمسها، فتنظر إليه بأسى وحزن.

تعود آسيا إلى قراءتها القديمة، تبكي بمرارة وهي تتذكّر أسطورة فيدرا، نيقولا هو هيبوليت الذي يقاوم إغراء فيدرا زوجة أبيه بتحريض من أرتميس – إلهة العفاف والشرف، فنيقولا يقاومها، لا إنه يعاندها ويعذبها بصده لها.

لن يبعد نيقولا عن آسيا رغم أنه غير راغب في خيانة خاله جورج ميخاليدس، فوجودها في حياته سيمنعه من الانتحار ثانية.

***

أحس كل سكان البيت بالمأساة التي يعيشها إسكندر، فهو شارد طوال الوقت، يخرج من بيته سائرًا في الطرقات، دلّه البعض على أصحاب دكاكين الكتب القديمة، ذهب إليهم، سألهم عن وصفات سحرية لتقوية

العانة، أرسلوه لعطار مسن في سوق الدقاقين، يعرف أنواع الأعشاب التي تقوي العانة، فذهب إليه.

يجلس الرجل على مقعد في مواجهة الدكان، انتظره إسكندر حتى أنهى حديثه مع امرأة - تأخر ابنها الشاب في الإنجاب - فدلها البعض إلى هذا الرجل.

اقترب إسكندر من الرجل في وجل وارتباك، حدثه عن مأساته، زوجته لها مواصفات تختلف عن مواصفات معظم نساء العالم، ولا بد لها من رجلٍ قويٍ له مواصفات خاصة مثلها، كتب له الرجل أنواع الأعشاب وكمية كل نوع منه. فذهب للناحية الأخرى، العمال هناك اعتادوا على خطّ الرجل المسن، ويعرفون ما يقصد من خطوطه غير المرتبة، لا أحد يعرف قراءة خطه ورموزه سواهم.

عاد إسكندر إلى بيته، أشعل وابور الجاز وغلى الأعشاب، زوجته تخاف الإقتراب منه الآن.

هذه الأعشاب سببت له مغصًا وإسهالًا، فظل ساهرًا يتأوه طوال الليل من آلام بطنه، واستيقظت الأسرة كلها من أجله، بل استيقظ سكان الحجرات الأخرى وسألوا عنه.

وصّاه العطار المسن أن يغتنم الفرصة ويلتقي بزوجته في نفس الليلة التي سيتناول فيها الأعشاب، قبل زوال أثرها، والأعشاب التي اشتراها غالية الثمن.

لكن فيفيان صاحت فيه غاضبة:

- يا رجل أنت تعبان، وتعاني من الإسهال والمغص.

فثار وغضب ولعنها، وحاول أن يضربها، فاستجابت مضطرة.

***

خرج إسكندر من الخزنة، بينما زوجته فيفيان تتأوه فوق السرير من أثر الحمل، أشعل سيجارته، كان تاسو يغط في نومه فوق سريره، والكنبة العربي التي ينام نيقولا عليها خاوية، نظر إسكندر في ساعته، الوقت متأخر ونيقولا لم يعد للآن.

سمع إسكندر دقات على الباب، من الذي سيأتي في وقت متأخر مثل هذا سوى نيقولا؟!

سحب نفسًا من السيجارة، فازداد عنف الدق على الباب، خرجت فيفيان من الخزنة قائلة في صوت خافت:

- ألم تسمع صوت الدق على الباب؟

نظر لسيجارته وقال في هدوء شديد:

- إنه نيقولا لا شك.

نظرت إليه في صمت، ثم أسرعت للباب، فصاح بها:

- إلى أين؟

- سأفتح له ما دمت لا تريد أن تذهب إليه.

فقام محاولًا ضربها، فقالت:

- جسدي لا يحتمل ضربك.

- تريدين أن تفتحي له، تريدينه؟!

بكت:

- الشارع كله يسمع صوت الدق على الباب، وسيقولون زوجة أبيه لا تريد أن تفتح له ... ...

قاطعها قائلًا:

- هذا ما أشك فيه منذ وقت طويل، أنتِ تريدينه.

لطمت خديها:

- لقد جننت، أنت جننت لا شك.

قام الولد تاسو، جلس فوق السرير، أخذ يفرك عينيه واستعد للنزول ليفتح الباب لأخيه، فصاح به:

- لن تفتحه له.

فعاد الولد لفراشه، لطمت فيفيان وجهها وصاحت باكية:

- الجيران سيتحدثون عن هذا، يقولون إننا طردناه من البيت.

- فعلًا، أنا أريده أن يبتعد عن البيت، لا يأتي إليه أبدًا.

مرَّ الوقت وتوقَّف صوت الدق على الباب، فصاحت فيفيان:

- يا لهوي، سيقول الناس زوجة أبيه رفضت أن تفتح الباب له.

سار نيقولا حتى بيت خاله جورج ميخاليدس، الحمد لله لأن حجرة ابنهم إبراهيم بعيدة عن باقي الشقة، دقَّ بابه، ففتح إبراهيم له، قال نيقولا:

- رفضوا أن يفتحوا الباب لي.

***

تكاد آسيا تُجنُّ، فمنذ أن علمت بالعلاقة بين نيقولا ونجفة التي كانت تسكن الحجرة المجاورة للحجرة التي يسكنها، ولهيب في جسدها يشتعل، لقد فعلت من أجله المستحيل، وما زال يقاومها، ويستجيب لامرأة مثل هذه - أقل منها جمالًا وسحرًا - فقد سمعت ابنها إبراهيم وهو يحكي لعمته ساندرا عمَّا يراه بينه وبينها.

وظلَّت آسيا تنتظر قدومه، وعندما رأته صاحت فيه غاضبة:

- أهذه امرأة تتعلق بها؟!

نظر إلى الأرض ولم يرد عليها، فاقتربت منه قائلة في ود:

- إبحث عن امرأة أجمل منها، وعلى استعداد لأن تضحي بكل شيء من أجلك.

قال لها:

- أين هي، أنا لا أجد مَن يهتم بي، أنت لا تعلمين ما أعانيه، أبي لا يطيقني في هذه الأيام، وقد رفض بالأمس أن يفتح لي الباب، فاضطررت أن أنام هنا مع إبراهيم ابنك.

- أعلم، وعنده حق أن يخاف منك على زوجته، وهو يرى نساء كثيرات يرغبن فيك.

قام حزينًا راغبًا في الخروج من بيتها، فأمسكت بيده قائلة:

- هناك من تريد أن تضحي بنفسها من أجلك.

خلع يده من يدها وأسرع للشارع، بكى في الطريق، فهو لا يدري أين يذهب.

***

تشاجر إسكندر مع كل الرجال الذين يسكنون بيته، حتى الذين يسكنون الدور الأرضي ولا يرون أو يتابعون

فيفيان زوجته، وأكد الجميع أنه قد جُنّ والاقتراب منه فيه خطر.

من سوء حظ جورج ميخاليدس أن ضابطًا في الجيش اسمه أحمد سرور الشريف، قد تم نقله إلى البوليس، وتخطوه في الترقية، فنصحه البعض بالذهاب إلى بيت جورج ميخاليدس ومقابلة آسيا زوجته.

رحبت به المرأة وقدّمت إليه الشراب، وطلبت منه خمسة وسبعين جنيها مقابل ترقيته.

جمع أحمد سرور الشريف المبلغ المطلوب، لكن أخلاق ضباط الجيش تغلبت عليه، فذهب إلى رئيسه الإنجليزي - البكباشي «تيل» - ووضع على مكتبه الخمسة وسبعين جنيها قائلًا له:

- إذا لم يتم ترقيتي إلا بواسطة جورج ميخاليدس؛ فرجاء أن توصّل إليه، أو لزوجته آسيا هذا المبلغ بنفسك.

فابتسم رئيسه قائلًا:

- خذ المبلغ وسأتصرف.

ذهب البكباشي تيل إلى «رسل» باشا - مساعد الحكمدار - وأبلغه بما حدث، ووصلت المسائل إلى الحكمدار، فلم يصدّق أول الأمر، واعتبر أن هذا من أسباب الحقد على جورج ميخاليدس، الرجل الناجح في عمله.

لكن الكثيرين قدموا شكاوى يتهمون فيها جورج ميخاليدس بطلب الرشوة، ولم يكن بالإمكان أن يبقى المسئولون على صمتهم، فوضعوا تليفونه تحت المراقبة خلال شهر أكتوبر 1916، الأمر الذي كشف عنه ليون كريزيان عامل شركة التليفونات، فقد شهد بأنه سمع مكالمات دارت إحداها حول تكليف السيدة آسيا لمحمد حربى – مراسلة زوجها – بمهمة مشبوهة، وأن جورج ميخاليدس رد على ذلك بالقول: «عظيم، عظيم».

ثم جاءت شهادة نائلة بنت عبد الله التي أكدت بأن جورج ميخاليدس طلب منها مبالغ نظير الإفراج عن الغربي وابنه إبراهيم، فسلمت زوجته آسيا 300 جنيه، لكن الحكمدار رفض الإفراج عن الغربي وابنه، فرد جورج ميخاليدس المبلغ ناقصا عشرين جنيها.

فتمّ القبض على جورج ميخاليدس وزوجته آسيا والجندي المراسلة محمد حربي ووقفوا جميعًا في قفص الاتهام، كان ثلاثتهم يبكون.

من يصدق أن جورج ميخاليدس الذي أذلّ الكثيرين يبكي هكذا؟!

اهتمت الصحافة بمحاكمة جورج ميخاليدس الذي ألحق الضرر بالكثير منهم، فاهتموا بمحاكمته وتتبعوا كل ما يحدث فيها وتزاحم الناس على حضور جلساتها تزاحمًا شديدًا.

ترافع عن جورج ميخاليدس إبراهيم الهلباوي، وترافع عن آسيا مرسي بك حنا، ودافع عن جندي المراسلة كامل أفندي البنداري.

وحكمت المحكمة بالسجن 5 سنوات على جورج ميخاليدس، وإلزامه بغرامة قدرها 5ر784 جنيها (قيمة المبالغ التي حصل عليها) وعلى زوجته آسيا بسنة سجن.

صفّق الجمهور وهتف من أعماق قلبه هتافًا عاليًا متواصلًا بحياة العدالة وصاح في وجه المتهم:

- إلى الجحيم يا مجرم، إلى السجن يا جورج.

وبصقوا في وجهه واستمرت الهتافات المدوية حتى قاده البوليس إلى السجن.

كان يبكي هو وزوجته، ونظم الشعراء والزجّالون القصائد الطويلة معربين عن فرحة الأمة بالقصاص العادل الذي وقع على هذا الطاغية.

وقف نيقولا مع إبراهيم وشقيقتيه في وداع أمهم آسيا وهي داخل سيارة السجن، لوحوا لها بأيديهم، وبكوا جميعًا، بكى نيقولا عليها أكثر منهم.

عاد نيقولا إلى البيت حزينًا، فآسيا الواحة الوحيدة التي كان يرتاح فيها ذهبت بعيدًا عنه، لم يتبق له سوى الشقاء، نظرات والده إسكندر النارية نحوه، ورغبته في التخلص من وجوده في بيته.

وجاء حسني بائع حبّ العزيز ومعه كثير من أقاربه يصطحبون الشرطة، للقبض على سعدية، متهمينها بالجمع بين زوجين، فقد تزوّجت عبده رشوان دون أن تُطلّق من حسني بائع حبّ العزيز، فالقبض على جورج ميخاليدس، شجّع حسني لكي يتهم زوجته السابقة سعدية بالجمع بين زوجين في وقت واحد.

****

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

الإسكندرية عام 1930

كبرت وشاخت، الطرمة – مساعدة نائلة بنت عبد الله – تتذكر شبابها أيام كانت سيدتها – نائلة – تنام بجوارها على السرير وتقبلها في رقة وحنان، هي الآن تستحق وصف «الطرمة» فقد شحب وجهها وخلعت كل أسنانها، ولم تعد نائلة ترغب في تقبيلها، كما يفعل الرجال بالمرأة.

تقضي الطرمة وقتها في الكومبكير، فنائلة لم تعد تهتم به، فمشاغلها كثيرة أهم من أعمال الكومبكير.

تذهب الطرمة إلى بيت سيدتها في محطة الرمل لتورد إليها إيراد اليوم كله. وتعود بعد ذلك إلى الزقاق الضيق، تتابع أنور – الذي يرتدي ملابس النساء – ويكشف عن ظهره العاري، تقوم أحيانا الطرمة من مكانها أمام البيت وتصفع أنور على ظهره العاري كما يفعل كثير من شباب المنطقة، فيصيح مندهشًا:

- حتى أنتِ يا طرمة؟!

فتعود لمقعدها آسفة وحزينة، تردد بصوتٍ يسمعه حتى السكان في بيوتهم:

- خسارتك يا أنور في ملابس النساء.

يتوقف أنور عن كنس الشارع، ويشرد بأسى في حاله.

فكرت الطرمة كثيرًا فيه، فهو وسيم، تقرّبت منه، وحاولت أن تبعده عن ملابس النساء والتعامل مع الذكور، قالت له:

- أنت رجل، تذكّر هذا جيدًا.

فمطّ شفتيه وابتعد عنها، تُحدّث نفسها وقرّرت أن تستثيره وتذكره بأنه ذكر وليس أنثى، لكنها فشلت فقد اعتاد هذه الحياة وانتهى الأمر.

تجلس الطرمة وحيدة على مقعد خارج القهوة الصغيرة «قهوة الشواذ» تتابع البيت المواجه للقهوة، أرض لا مالك لها، أصحابها ماتوا، أو هجروا مصر، تركوها وابتعدوا عنها، الأرض الآن خرابة، يرموا الناس فيها زبالتهم ورديم بيوتهم المتهدمة.

اقتربت الطرمة من سيدتها نائلة بنت عبد الله، واستشارتها قائلة:

- ماذا لو استوليت على الأرض الفضاء المواجهة لبيت الشواذ؟

أخرجت نائلة مبسم الشيشة من فمها وصاحت:

- وأصحاب الأرض يا طرمة؟

- لو كان لها أصحاب كانوا استردوها.

سحبت نائلة نفسًا طويلًا من الشيشة، ونظرت بعيدًا كعادتها عندما تفكر ثم قالت:

- تريدين أن تبني عليها كومبكير صغير لك؟

ضحكت الطرمة وكشفت عن فمها الخالي من الأسنان:

- وهل أستطيع ذلك، كل ما أريده أن أقيم أكواخًا أؤجرها، وأعيش منها.

عادت نائلة بنت عبد الله لمبسم شيشتها، ثم صاحت:

- إفعلي ما تشائين، وكل المصاريف على حسابي.

أقامت الطرمة أكواخًا من الخشب والصفيح الصدئ، وسكّنت هذه الأكواخ، بيت ليس فيه ماء ولا كهرباء،

يحملون الأواني ويملأونها من حنفية الصدقة القريبة، يملأون الأزيرة الفخارية، والكهرباء أمرها سهل، فرع سلك من أسلاك الحكومة ويضيئوا لمباتهم، ويدفعون قيمة الإيجار للطرمة.

سكن في بيت الطرمة ثلاثة أشقاء، أكبرهم عنتر الذي يعمل في بار بشارع البئر، صاحبه خواجه يوناني، سافر كل أهله وهو ما زال متمسك بمصر، يقدّم عنتر أكواب الشراب والمزّة لزبائن البار، يلتصق جسده بالنساء المصبوغات، لا تهمه نسوة البار في شيء، فهو متزوج من امرأة طويلة وعريضة، لون بشرتها أحمر، وجهها يبكّ الدم منه، وجسدها لونه أحمر، لا توجد امرأة في بار هذا الخواجة في جمال زوجته.

وأخوه التالي له اسمه عثمان، يعمل في مصنع للبراويز في شارع الفراهدة القريب، والأخ الأصغر اسمه عادل، يبيع حاجة ساقعة في سينما كليوباترا، يؤكد عليه صاحب السينما بضرورة ارتداء جاكيت أبيض، عادل لا يحب هذا الجاكيت المفروض عليه لبسه، يضعه دائمًا على ذراعه وهو سائر.

سينما كليوباترا تقع في حي اللبّان، سينما درجة ثالثة، صالتها الأولى تذكرتها بتسعة مليمات، دكك متراصة، وزحام على المقاعد، عمال يمسك كل منهم حزامًا من الجلد، يضربون به الجالسين على طرف الدكة لكي ينزاحوا ويفسحوا مكانًا لغيرهم، فكثير من المشاهدين يقفون في الطرقات لا يجدوا مكانًا يجلسون فيه، فيضطروا للجلوس على البلاط العاري قريبًا من شاشة العرض.

يدور عادل بزجاجات الحاجة الساقعة، يدق بالمفتاح المعدني على الزجاجات، لكن من سيشتري منه في صالة تذكرتها بتسعة مليمات تذكرة الجزء الثاني من الصالة، ثلاثة قروش كاملة، زبائنها أكثر رقيًا، وقيمة تذكرة البلكون 5,5 قرشًا.

ما يصدق يجد عادل شابًا يجلس مع شابة، يعرفهما من نوع الجلسة، فلو ترك الشاب الفيلم المعروض ونظر إلى فتاته، فهو حتمًا سيستجيب ويشتري منه زجاجتين، وربما يدفع بقشيشًا أيضًا، فيلح عادل عليه، يقترب من وجهه وهو يدق بالمفتاح المعدني على الزجاجات، ليضطره لأخذ زجاجتين ليبعد عنهما.

كثيرًا ما جاء ضابط مباحث قسم اللبّان بالبوكس فورد، يسد به باب السينما، ويدخل الخارجين للبوكس، يسألهم في قسم الشرطة عن بطائقهم وأعمالهم.

يعود عادل بعد حفلة الساعة التاسعة، يذهب للمعي بائع الخمور، يشرب بيرة، ويضطر في الأيام التي لا يجد فيها مالًا، أن يشتري من لمعي كحول ويشربه؛ لذا أطلقوا عليه في الحي، اسم «عادل سبرتو».

يصل عادل لقهوة الشواذ وهو سكران طينة، يجلس على مقعد ويهذي، يذكر رشيدة زوجة أخوه عنتر، وجهها الممتلئ الذي يبكّ الدم منه، وجسدها الرائع، يحسد أخاه عنتر لأنه تزوّجها، تطلّ رشيدة من نافذة كوخها وتصيح:

- ربنا يفضحك يا واد يا عادل.

يلتف الكثير حول عادل، يسمعون هذيانه، لو كان عنتر موجودًا في البيت، فسينهي المشكلة بسهولة، سيسرع إليه، يواجهه، ثم يصفعه في عنف، كثيرًا ما يغمى عليه من أول صفعة، وقلّما يحتاج عنتر لأن يصفعه مرة أخرى ليغمى عليه، ثم يحمله على كتفه، ويدخل به إلى بيت الطرمة، يلقيه على فراشه، ويذهب عنتر لكوخه الذي يسكنه مع زوجته رشيدة وأبنائه منها.

ينام عادل لصباح اليوم التالي، وأحيانًا يجدونه قد تبوّل على نفسه وهو نائم من أثر الخمر الذي شربه.

منذ أن أنشأت الطرمة أكواخها في هذه الأرض التي لا صاحب لها، وعنتر يسكن في كوخ على الشارع بينما أخواه عثمان وعادل يسكنان معًا كوخًا في الداخل، نافذته تطل على شارع من الناحية الأخرى.

يأتي عنتر بعد العصر بقليل ليتناول غداءه، يجد رشيدة زوجته قد أعدته له، بعد الغداء يخرج إلى الزقاق الضيق، يجلس على قهوة الشواذ، وترسل رشيدة كوب الشاي إليه، ترسله مع أخيه عثمان أو عادل، أو تضطر

هي أن تذهب به إليه، بعد أن يشرب شايه، يذهب للبار، يبقى فيه إلى أن ينتهي العمل، لا ينام إلا قبل الفجر بقليل.

يسكر الولد عادل كالعادة، يهذي وهو جالس على قهوة الشواذ، يذكر أخاه عثمان الذي يعمل في ورشة لصناعة البراويز، كبر عثمان ولا يريد أن يتزوّج، يخلط الولد عادل حكاية أخيه عثمان برشيدة زوجة أخيه عنتر، فعثمان يعود من ورشة صناعة البراويز بعد الثالثة، ويبقى في بيت الطرمة لصباح اليوم التالي، لا يبرحه، يقضي وقته جالسًا بجوار رشيدة – زوجة عنتر – يتحدثان مغًا همسًا.

تطل رشيدة من نافذة كوخها وتصيح:

- ربنا يفضحك يا واد يا عادل.

ما يقوله عادل غير مفهوم لسكان الزقاق الضيق، لكن رشيدة تعرف مقصده، لا بد أن تتخذ موقفًا منه وإلا حدثت مشكلة بينها وبين زوجها عنتر.

طالت فترة سكر الولد عادل هذه المرة؛ لأن أخاه عنتر غير موجود لكي يصفعه ليغمى عليه حتى صباح اليوم التالي، ماذا تفعل رشيدة، والولد عادل سيفضحها وسيكشف المستور، لو يتقدّم عثمان ويصفعه كما يفعل عنتر في كل مرة.

التفّ الكثير حول عادل، فصاحت رشيدة من نافذة كوخها الصغيرة:

- ألا يوجد راجل ابن راجل يفوّقه من سكره؟!

تساءل الكثير عن معنى ما يقوله عادل، ما صلة عثمان برشيدة، ولماذا يكثر من البقاء بجوارها طوال غياب زوجها خارج البيت؟

فكّر الكثير في الحل، من يقول لا بد أن يأكل قطعة جبن قديمة، لكي يخرج ما في أحشائه، أو يأتي رجل ويصفعه في عنف كما يفعل أخوه عنتر في كل مرة.

***

وعاد عنتر إلى بيت الطرمة في غير موعده الذي يأتي فيه في كل يوم، لا يدري أحد ما الذي حدث، ربما أحس بتعب فاستأذن من الخواجة صاحب البار، أو ربما نبّهه أحد سكان الزقاق لخطورة الكلام الذي يقوله أخوه عادل عن علاقة زوجته رشيدة بأخيه عثمان.

فوجئ سكان الزقاق، برشيدة وهي تخرج من نافذة كوخها الصغير، فقد اتحشرت في النافذة الضيقة وكادت تختنق وتموت، فقد دق زوجها باب الكوخ عليها وهي في أحضان أخيه عثمان، تجرّح جسدها، وسال الدم من ذراعيها وساقيها، وجرت في الزقاق وعنتر يجري خلفها ممسكًا بسكينٍ كبير، وهي تصرخ وتصيح:

- أغيثوني، سيقتلني.

أمسك الناس عنتر، أجلسوه على قهوة الشواذ، وأخفوا رشيدة بعيدًا عنه، كان يلهث من الصدمة ومن جريه خلف زوجته رشيدة.

جاءوا بعثمان إلى القهوة، أقسم بأنه لم يحدث شيء بينه وبين رشيدة، فهو ليس سيئًا، لدرجة أن يقيم علاقة مع زوجة أخيه الكبير، المسألة أنه نام في كوخ أخيه عنتر، وهي سمعت صوت غطيطه فنامت على الكنبة بعيدًا عنه إلى أن جاء عنتر من البار فجأة.

اقتنع عنتر، وأكمل حياته مع زوجته رشيدة، وأنجب منها أطفالًا آخرين بعد ذلك، وتزوج عثمان وسكن بعيدًا، وما زال عادل يسكر إما بخمر لمعي أو بالسبرتو الرديء إذا لم يجد مالًا، ويهذي بأشياء غريبة عن رشيدة الجميلة وأخيه عثمان؛ إلى أن يأتي أخوه عنتر فيصفعه في عنف، حتى يغمى عليه لليوم التالي.

وحدث أن سكر الولد عادل وأخذ يهذي، فاضطر أخوه عنتر أن يصفعه، لكنه لم يفق، فصفعه ثانية، فلم يفق أيضًا، فاندهش عنتر مِمَّا يحدث، فأول مرة يصفع عادل مرتين ولا يغمى عليه، فصفعه صفعة ثالثة أكثر عنفًا، وحمله على كتفه ككل مرة، رماه على فراشه، وانتظروا في صباح اليوم التالي، أن يفيق ويذهب لسينما كليوباترا التي يعمل بها، لكنه لم يفق، فالتفوا حوله، ودفعوه، فاكتشفوا موته.

***

تتابع الظرمة شويحة الذي يسكن بيتها، يربط حماره في عمود الكهرباء الموجود أمام البيت، يتابع حماره وهو يشرب، يصفّر له ليساعده على شرب الماء، عندما يسمع الحمار صفير شويحة يستجيب ويشرب.

لا تعرف الظرمة الاسم الحقيقي لشويحة، فالكل في المنطقة يسميه شويحة؛ لأن عينيه ترقصان طوال الوقت.

يعيش شويحة في البيت وحده، لا زوجة ولا أولاد، من سترضى به زوجًا؟! يبتعد بحماره، يذهب به لأسطبل قريب، وتعود الظرمة لمتابعة أنور ومعاكسات شبان المنطقة له.

يقف شويحة بعربته الكارو قريبًا من باب محطة القطار، في انتظار راكب يحمل قُففًا وأجولة لينقلها بعربته وحماره.

يجد فتاة حسناء تخرج من باب المحطة إلى الشارع، حاملة صرة ملابسها، ثم تعود إلى المحطة ثانية في خوف، فقد بهرتها أضواء الشارع الذي لا تعرف فيه أحدًا، كما أن الجو في الخارج أكثر برودة.

نظر إليها جندي طويل وعريض، يرتدي الملابس الصفراء ويتحرك فوق رصيف القطار، يتابع الموجودين في قلق، فأسرعت الفتاة للخارج ثانية، لا بد أن تجد مكانًا تذهب إليه، وإلا أخذها هذا الشرطي وسلمها للبوليس.

سارت خارج محطة القطار حائرة، والجو يزداد برودة، وملابسها ليست ثقيلة، اقتربت من العربة الكارو التي يجرها حمار شويحة، في انتظار مسافر يريد أن ينقل قفصه أو محتوياته لبيته.

سندت ظهرها على حافة العربة، فاقترب شويحة منها قائلًا:

- أتريدين شيئًا؟

فابتعدت عن عربته، لكنه اقترب منها أكثر:

- يمكنني مساعدتك؟

كانت عيناه تتحركان طوال الوقت، قالت:

- أنا غريبة، ولا أعرف أين أذهب.

أمسك صرة ملابسها قائلًا:

- كلنا أغراب.

وضع صرة ملابسها على حافة عربته، وابتسم لها، ومد يده لها فتحركت عيناه أكثر، ودعاها لكي تجلس بجواره على العربة، توقّف في الطريق واشترى خبزًا وطعمية وطماطم وجرجيرًا، وضعها بجواره واستأنف سيره، سألها:

- ما اسمك؟

- اسمي فردوس.

خرجت فردوس في المساء من بيت أهلها في دمنهور حاملة صرة فيها بعض ملابسها وركبت القطار ونزلت الإسكندرية، فأخوها الكبير كان يضربها، فهي طويلة وعريضة، وشباب البلدة يتمنون رضاءها، وأخوها خائف عليها منهم.

ذهب شويحة بها إلى بيته في الزقاق الضيق بمنطقة اللّبّان، أدخلها كوخه الذي يسكنه وحده قائلًا:

- لا تخافي مني، بعد أن تتناولي عشاءك، سأترك لك كوخي لتنامي فيه وحدك ...

صاحت:

- لا، لا تبتعد عن كوخك من أجلي.

- لا تعولي همي، فلن أغلب، وفي الصباح سأجد لك حلًا.

كان الحل أن تتزوج «شويحة».

ارتاحت فردوس لشويحة، فهو طيب، يحسن معاملتها، كانت تخرج من البيت، تقف في الشارع وتمسك الحمار الذي تعوّد على التعامل معها، كان يقترب منها، ويمسح بوجهه في جسدها، فتحتضنه وتقبله.

هي التي كانت تضع العليق والماء للحمار، وتساعد شويحة في تجهيز عربته، وتحمل عنه الأشياء التي يأتي بها إليها كل ليلة.

سكان الزقاق الضيق اندهشوا، كيف لهذه المرأة الجميلة أن تتزوج شويحة وتعيش معه هكذا، فطاردها البعض، لامها لأنها تزوّجت من رجلٍ مثل شويحة، وهي بجمالها النادر قادرة على أن تتزوج عمدة أو رجلًا ميسور الحال، خاصة الولد سعيد الذي يدير الآن دكان العلافة الذي تمتلكه أمه في الشارع الرئيسي، فقد رآها سعيد وهي تسير مع شويحة في انتظار أخذ الفول والشعير الذي يشتريانه أكلًا للحمار.

الولد سعيد يطارد فردوس، يستكثرها على شويحة، يحكون هناك عن والده الذي كان يمتلك بيوتًا كثيرة في حي اللّبّان، يقولون إنه باع بيتًا من بيوته الكثيرة لكي يعطي مالًا طلبه ابنه سعيد منه، ومات الرجل فجأة، فأدارت زوجته العمل في دكان العلافة، يقف أمامه العربجية الكثيرون في المنطقة يشترون منه التبن والفول والشعير والبرسيم أكلًا للحمير والخيول المنتشرة في المنطقة، ولكن لم يفلح الولد سعيد في التأثير على فردوس، لكن الطّرمة نجحت في ذلك، تابعت فردوس وهي تتحرّك في خفة لتضع الطعام لحمار شويحة، تخيلتها الطّرمة أمامها، بقامتها المديدة وجمال وجهها، يااه، لو رأتها سيدتها نائلة بنت عبد الله، ستجن بها، وستعيد إليها ما كانت تفعله مع الطّرمة قبل أن تشيخ وتفقد كل أسنانها.

استطاعت الطّرمة أن تأخذها إلى بيت سيدتها نائلة بنت عبد الله بمحطة الرمل، كادت نائلة تُجن عندما رأتها، لم تنتظر حتى تذهب الطّرمة بعيدًا عنها، وقامت وقبلت فردوس في فمها، فعلت كما يفعل الرجال بالنساء، ومن شدة سعادتها بالطّرمة أهدتها جنيهًا ذهبيًا بأكمله، قائلة:

- أول مرة تحسني الاختيار يا طرمة.

بكى شويحة عندما ابتعدت فردوس عنه، فقد أسعدته في الأيام القليلة التي عاشتها معه، وما زال يحكي عمّا كانت تقدمه إليه من عون وسعادة، ويدعي على من أبعدها عنه، كان يقول:

- منه لله الذي حرضها على ترك بيتي.

فقد هربت من بيته كما هربت من أخيها.

عاشت فردوس في شقة نائلة بنت عبد الله لمدة طويلة، ثم ملتها نائلة فأرسلتها إلى الطّرمة في الكومبكير.

***

اقترح منصور الشيخ الذهاب إلى كومبكير، فقال حسين في ضيق:

- يا الله، لقد مللنا صديقاتك العواجيز فقد كبرن وشخن.

فوقف منصور قائلًا:

- أنتم متأخرون، فقد جاءت واحدة جديدة مثل فلقة القمر، اسمها فردوس.

قال حسين:

- اذهبوا أنتم فأنا لا أرتاح لهذا العالم.

شدوه من ملابسه في عنف قائلين:

- ما تنكدش علينا.

قال:

- سآتي معكم للفرجة فقط.

استقبلتهم الطُرمة المسئولة عن إدارة هذا الجزء من الكومبكير، فنائلة اتسع عملها فافتتحت أكثر من مكان بعضه مرخص وتحت رعاية الشرطة، وأكثره مخالف للتعليمات، ويتم بطرق سرية، فهي تدفع كثيرًا للشرطة ولغيرها لكي تستمر أعمالها الممنوعة.

الطُرمة هي مندوبة نائلة هنا، تتحكَّم في كل النساء والقوادين أيضًا، رحبت بهؤلاء الشباب قائلة:

- أهلًا بكم.

كان اليوم هادئًا للغاية، فسيدات كثيرات في الداخل والزبائن قلة، فدخل كل واحد من الشباب على واحدة.

منصور الشيخ أول من دخل الحجرة، فهو مستعد لهذا تمامًا، فقد أكل بسطرمة مصنوعة من لحم الخيول الأسترالية التي كثرت وقت الحرب – وكانوا يذبحونها في أرض فضاء خلف عمود السواري – (مكانها الآن مستشفى كرموز العمالي)، قالوا إن هذا النوع من اللحم يقوي الرجال في التعامل مع النساء.

دخل منصور الشيخ على عاهرة كانت مشهورة بجمالها وخفتها، وفجأة سمعوا صوته وهو يصيح ويسب ويلعن، والعاهرة تصرخ وتستغيث.

أسرعوا بدخول الحجرة الصغيرة التي تجمعهما معًا، فوجدوا نصف منصور الشيخ عاريًا، وهو ما زال يصرخ ويشير لأسفله، ويضرب في العاهرة في جنون.

أسرعوا إليها وخلصوها منه بعد عذاب، قالت وهي تضحك رغم ضربه لها:

- لم أفعل له شيئًا، لم أفعل له شيئًا.

اتضح أن منصور الشيخ ما أن رأى العاهرة أمامه عارية حتى استثار، وانتهى كل شيء قبل أن يصل إليها، كانت المرأة مستغرقة في الضحك بطريقة عالية جدًا وهي تقول:

- ما ذنبي لو كنت أنت غير قادر على احتمال جمالي وأنوثتي؟!

دفع منصور الشيخ أجرة العاهرة دون أن يفعل شيئًا، فقد انتهى كل شيء وهو في طريقه إليها، ومن الصعب عليه أن يبدأ من جديد الآن.

أما السيد فأول مرة يذهب معهم لزيارة هذا المكان، وما أن دخل الحجرة الصغيرة حتى سمعوا صوت العاهرة تصرخ:

- يا لهوي ... يا لهوي.

والسيد يقف في مدخل الحجرة نصفه الأسفل عاريًا، أسرعوا نحو الحجرة هلعين:

- ماذا حدث؟

ظنوا أن السيد هاج واتغابى عليها وضربها كما سبق أن فعل منصور الشيخ، سألوه:

- ماذا فعلت بها؟

قال في منتهى البراءة:

- لم أقترب منها للآن.

فأشارت المرأة إلى نصفه العاري قائلة وهي خائفة ومرتعبة:

- انظروا.

نظروا لعريه واندهشوا، فقال منصور الشيخ متحسرًا على حاله:

- ده إحنا مش رجاله.

كاد السيد أن يبكي من الأسى قائلًا:

- طيب ذنبي أنا إيه؟!

أسرعت الطرمة نحو الحجرة، وخلفها أحد القوادين، ظنًا أن السيد يضرب العاهرة، وعندما علمت الطرمة بما حدث، ابتسمت وقالت للقواد في هدوء شديد:

- ليس هناك سوى تفاحة.

أومأ القواد برأسه قائلًا:

- فعلًا، الحل هو تفاحة، لكنها تسكن بعيدًا.

سارت الطرمة في طريقها للباب قائلة:

- لو مشتاق ينتظر حتى تأتي بها.

ضاق منصور الشيخ بما يحدث، وارتدى السيد ملابسه وهو حزين.

قال القواد للسيد ومنصور الشيخ بلغة العارف بمثل هذه الأمور:

- ولا يهمك، هذه أمور تقابلنا كثيرًا، عندي طلبك، لكن أجرته أزيد.

تمنى منصور لو صاح في السيد بأن يخرجا معًا من هذا المكان، لكن السيد متمسك به.

***

خرج القواد إلى الشارع، اقترب من عربة حنطور قريبة من باب الكومبكير، تلبية لمثل هذه المأموريات الطارئة، كان قائدها يغطُ في نومه داخلها، فأيقظه القواد:

- هيا بنا إلى حدائق الشلالات.

طرقع العربجي بكرباجه قريبًا من أذني حصانه ليوقظه من نومه، وتحركت العربة في طريقها لحدائق الشلالات.

توقفت السيارة بجوار مساكن قديمة هناك، قفز القواد من جوار العربجي ودقَّ على خشب نافذة الدور

الأرضي في البيت، فطل رجل مسن يرتدي فانلة داخلية قائلًا:

- مَن؟

- لو سمحت، محتاجين للست تفاحة في مأمورية عاجلة.

نظر الرجل للداخل، ثم عاد إليه قائلًا:

- تحت أمركم.

وقف القواد بجوار العربة الحنطور، وجاءت تفاحة، وهي امرأة سمراء ممتلئة وطويلة، تطرقع بشبشبها، جلست داخل العربة دون قول، بينما جلس القواد بجوار العربجي وأخذا يدخنان السجائر معًا.

أسرعت تفاحة نحو الحجرة التي ستجمعها بالسيد وكأنها طبيبة ستدخل حجرة عمليات، قال منصور لها:

- عرفتي مشكلته؟

قالت:

- اطمئنوا، فأنا لا تهمني مثل هذه المسائل.

وخرج السيد من الحجرة سعيدًا وممتنًا.

***

أخذوا يلحون على حسين لأن يفعل مثلما يفعلون، وهو غير راغب في ذلك، فقال منصور الشيخ:

- كل المصاريف على حسابي.

فضاق حسين من حديثه هذا وصاح غاضبًا:

- المسألة ليست مسألة فلوس.

قال القواد لحسين:

- سأدخلك إلى أهم امرأة عندنا الليلة.

دخل حسين مضطرًا وبلا حماس.

كانت فردوس نائمة فوق السرير تنظر إلى سقف الحجرة شاردة.

فاقترب منها، نظرت إليه بلا حماس، وظلّت في وضعها كما هي.

فدفعها في كتفها غاضبًا:

- اتعدلي أمامي.

جلست فوق السرير وهي ما زالت تنظر بعيدًا عنه، أحس حسين بالضيق منها قائلًا:

- مالك، تعامليني ببرود هكذا؟!

فصاحت في ضيق:

- خلص مأموريتك وانتهي.

فجلس بجوارها، وتابع وجهها الجميل، فأبعدت وجهها عنه.

وجد حسين شيئًا يشده إليها فقال:

- مالكِ، تعملين بلا حماس؟!

- مللت هذه المهنة، أرجوك أنهِ مهمتك.

وانخرطت في البكاء، فضمها لصدره، فارتمت في صدره وأكملت بكاءها.

أخرج حسين نقودًا ووضعها في صدرها وقام، رمت نقوده على الأرض قائلة:

- لا آخذ مالًا دون شيء.

سار ناحية الباب قائلًا:

- وأنا لا أتعامل مع امرأة لا تريدني.

وخرج، فأسرعت خلفه، سألها أحد القوادين عمّا حدث، فقالت:

- لا أدري ما الذي حدث.

كانت تمسك النقود تريد أن تعيدها لحسين، لكنها لم تجده أمامها، قال القواد:

- لقد أسرع إلى الشارع.

وعندما خرج زملاؤه من عند العاهرات الأخريات لم يجدوه، كان قد عاد لبيته.

***

يسكن حسين في شارع شجرة الدر بغربال، هو مقاول معمار، عنده الكثير من العمال، عندما ترسو مقاولة على الإيطالي روفائيل ساورودة يذهب ساورودة إليه بسيارته لمسكنه في شارع شجرة الدر ويتفق معه على توريد عمال الفاعل، وقد رسا بناء كورنيش الإسكندرية من رأس التين حتى المنتزه على بنك دوفارو، فأرسى البنك مهمة البناء إلى روفائيل ساورودة.

يعرف الأسطى حسين ما حدث، فقد أحس ساورودة بأن المشروع كبير جدًا، ولن يقدر عليه وحده، فذهب بنفسه لمقابلة بترو كمبو – المقاول الكبير في الأزاريطة - وطلب منه أن يشاركه في صنع هذا الكورنيش الضخم.

حسين على صلة وثيقة بروفائيل ساورودة، فهو يجالسه كثيرًا، هو وبترو كمبو وبرتلو صاحب مصنع لحم الخنزير، يتقابلون في بار كبير في شارع البيْر تابع لنائلة بنت عبد الله، وكثيرًا ما قابلتهم، ورحبت بهم بنفسها هناك.

يعرف حسين أن ثلاثتهم كانوا أصدقاء لإسماعيل صدقي – أيام كان يشغل وظيفة سكرتير عام بلدية الإسكندرية، فيقابلونه ويشربون معه، فيلح روفائيل ساورودة على إسماعيل صدقي في كل لقاء بضرورة إقامة مصدٍّ لمياه البحر المالح، وإلا زحف البحر وألتهم الشوارع القريبة من الشاطئ.

وكان إسماعيل صدقي يكتفي بإيمائة من رأسه قائلًا: عظيم، عظيم.

انتقل إسماعيل صدقي إلى القاهرة، لكنه ظلّ على صلة بأصدقائه القدامى روفائيل ساورودة وبترو كمبو وبرتلو صاحب مصنع لحم الخنزير الذي يشرف على أراضي منطقة سموحة، يرمون زبالة الإسكندرية فيها، وعلى جانبي ترعة المحمودية في أماكن عدة، فيربي برتلو خنازيره في كل هذه الأماكن، ويعرض لحمها في دكانه الكبير في ميدان سانت كاترين.

يورد برتلو كميات هائلة من لحم الخنزير إلى أصحاب مصانع اللحوم – اللانشون والبسطرمة – ليضيفوا لحمها إلى اللحم البلدي الذي يصنعون منه اللانشون والسجق والبسطرمة، يقولون إن لحم الخنزير يعطي لهذه الأنواع طعمًا أكثر لذاذة.

تابع حسين نجاحات إسماعيل صدقي وأخباره، فقد نشرت الصحف يوم 22 مايو 1916 بأن بوليس الآداب هاجم عوامة فوجد بها إسماعيل صدقي – وكان وقتها وزيرًا للأوقاف- مع امرأة، وكانا عاريين، وأن المرأة انتحرت بالسم بعد فضيحتها، وأن السلطان حسين كامل غضب، وعندما تقابل مع إسماعيل صدقي، في أول لقاء معه – بعد هذه الحادثة - سبه وضربه بالشلوت.

ظلّت فكرة إنشاء كورنيش على بحر الإسكندرية تُعرض بإلحاح في اجتماعات بلدية الإسكندرية، وصبر روفائيل ساورودة على إسماعيل صدقي، انتظره حتى نجح ووصل لمنصب رئيس وزراء مصر، ثم طالبه بتنفيذ المشروع.

***

منذ أن عاد حسين ليلة أمس من الكومبكير وهو غير متزن، فقد تعوّد على أن ينام بعد الغداء، لكنه فشل اليوم تمامًا في ذلك، طوال الوقت تطارده فردوس بجسدها الطويل العريض وفمها الواسع ورقبتها الطويلة المميزة.

يا سبحان الله، لقد كان معارضًا لزيارته للكومبكير مع أصحابه بالأمس، وهو الآن يفكر في زيارته اليوم وحده بعد انتهاء عمله، سيسأل عن فردوس، فصورتها لم تفارق خياله منذ أن ثارت عليه ليلة أمس.

جلس حسين على القهوة بشارع شجرة الدر وحوله الكثير من العمال الذين يوردهم لروفائيل ساورودة وبترو كمبو.

يتحكّم الأسطى حسين في الكثير من عمال الفاعل، الذين يسكنون قريبًا من سكنه، ويقابلونه كل مساء في مقاهي شارع شجرة الدر الكثيرة.

حسين غير مرتاح للعمل في مشروع بناء كورنيش البحر، فقد أتوا بالمساجين في سيارات كثيرة لحمل التراب والحجارة كبيرة الحجم، كما أنهم يستعينون بأجهزة حديثة لم يتعامل معها حسين ولا رجاله من قبل، عربات قطار مؤقتة لنقل الأحجار الضخمة لرصها ووضعها في طريق أمواج البحر، فقد تعوّد حسين وعماله على حمل المونة والأحجار الصغيرة في كروانات وقفف.

***

تذهب الطرمة كل ليلة إلى بيت نائلة بنت عبد الله الجديد في محطة الرمل، لتورد إليها إيراد اليوم كله، نائلة زاد وزنها بشكل واضح، فقلت حركاتها، تشغل نفسها الآن بتدخين الشيشة كالرجال، وتشرب الخمر طوال الوقت.

تبحث نائلة عن السعادة فلا تجدها، بيوت الدعارة بكل أنواعها تزداد عندها، والأموال تزداد، لكن هذا لا يمنع الاكتئاب عنها، تحكى الطرمة لها كل ما يحدث في البيت الذي تشرف عليه، ونائلة تشد النفس من الشيشة وهي شاردة طوال الوقت، حكايات الطرمة مملة ومكررة، مشاجرات العاهرات بعضهن مع بعض التي لا تنتهي، ومشاكل القوادين.

حكت الطرمة وهي تضحك عمّا حدث اليوم، الشاب الذي ضرب رفيقته لأنه استئثار قبل أن يصل إليها، تعرف نائلة حكايات كثيرة من هذا النوع، هي تريد أشياء جديدة، مثيرة؛ لذا توقّفت طويلًا عمّا حكته الطرمة عن الشاب الذي خافت رفيقته من منظره، ولم تستطع التعامل معه، فاضطروا إلى الاستعانة بتفاحة المتخصصة لمثل هذه الحالات.

توقفت نائلة بنت عبد الله عن شد نفس الشيشة ووضعت المبسم فوق الحامل وقالت للطرمة:

- أريد رؤية هذا الشاب.

قالت الطرمة وهي حائرة:

- وكيف سأصل إليه؟!

وقفت نائلة وسارت نحو دولاب متعلقاتها، وأخرجت جنيهات ذهبية كثيرة، وقدمتها للطرمة:

- لو جئتِ به إليّ، سأعطيك كل هذه الجنيهات الذهبية.

تابعت الطرمة المشهد في صمت، فهي وكل العاملين مع نائلة بنت عبد الله يعرفون مدى تعلقها بالرجال الأشداء، لكنها لا تعرف الطريق لهذا الرجل، فهو زبون عادي، أتى وقد لا يأتي ثانية إليهم.

عادت الطرمة إلى بيتها وهي شاردة طوال الوقت لا بد أن تصل لهذا الشاب الذي تريده سيدتها نائلة بنت عبد الله، آه لو تحدث المعجزة، ويأتي هذا الشاب الليلة، ثم تذكرت تفاحة المرأة البدينة والطويلة المخصصة لمثل هذه الأمور، سترسل القواد ليأتي بها وتسألها، ربما قال لها الزبون وقت اللقاء عن عنوان بيته، أو تتذكّر أي شيء يوصلهم إليه.

ذهب القواد لمقابلة تفاحة التي سعدت، فهي لا تعمل معهم إلا في حالات نادرة قليلة مثل هذه، ظنت أنه جاء الفرج بوجود رجل له قدرات غير عادية في حاجة لامرأة مثلها، تمتلك قدرات غير عادية مثله، لكنها فوجئت بسؤال الطرمة عن عنوان الرجل الذي قابلته ليلة أمس، فقالت:

- لا أعرف حتى اسمه، فقد كان يعمل في صمت، ويبدو أنه كان مهمومًا.

أحست الطرمة بالأسى، ودفعت لتفاحة أجرة أقل، فأخذت المرأة النقود غير راضية.

وبينما كانت الطرمة مشغولة بالبحث عن طريقة للوصول لذلك الرجل الذي تريده سيدتها نائلة بنت عبد الله رأت حسينًا أمامها يسأل عن فردوس.

سبحان الله، العبد في التفكير والرب في التدبير، الله يعلم كم هي في حاجة لحل مشكلتها.

قامت الطرمة سعيدة، أمسكت حسين من يده قائلة:

- سأحضر فردوس إليك، سأحضر إليك كل نساء هذا المكان، لكن دلني على زميلكم، الشاب الذي رفضت واحدة تعمل معنا التعامل معه لأن ... ...

وأشارت لأسفل.

اندهش حسين من حديثها قائلًا:

- السيد، صديقي، أعرفه وسأدلكم على مكان بيته، لكن في الأول دلوني على مكان فردوس.

دخلت الطرمة لفردوس قائلة في سعادة:

- أجرة هذا الشاب عندي أنا، لا تأخذي منه شيء.

ثم نظرت لحسين قائلة في ابتسام وود:

- سأنتظرك في الخارج لتوصلني لسيد صديقك.

قامت فردوس مرحّبة بحسين هذه المرة، وأخرجت النقود التي تركها لها ليلة أمس وقدمتها إليه:

- في الأول تأخذ نقودك، كما أن هذه المرة على حساب الطرمة.

اقترب حسين منها:

- صدقيني، أنتِ في بالي طوال الوقت.

ضحكت قائلة:

- وأنت أيضًا، طوال الوقت وأنا أفكر فيك.

وضع النقود في صدرها قائلًا:

- لا أريد أن أقابلك هنا ثانية.

- وأين سنتقابل؟

- في أي مكان بعيد عن هذا المكان الذي لا أحبه.

- أملي أن أبتعد عن هذا المكان نهائيًا.

***

ذهبت الطُرمة بنفسها مع حسين لمقابلة السيد في بيته، فالطُرمة تنتظر جنيهات نائلة بنت عبد الله الذهبية بفارغ الصبر.

يسكن السيد في حجرة فوق سطح البيت، دقَّ حسين باب الحجرة مرات عديدة، فقد جاء كثيرًا إليها لمقابلة السيد، لكن لم يجده في البيت، قال للطُرمة:

- اذهبي أنتِ الآن، وسأبلغه بذلك عندما أقابله.

لكنها قرفصت بجوار باب الحجرة المغلق قائلة:

- لن أخرج من هنا إلا به، ولو أدى هذا لبقائي لعدة أيام.

اندهش حسين من إلحاحها هذا، ما الذي تريده الطُرمة من السيد، فهي عجوز ويقولون إنها امتنعت منذ سنوات طوال عن التعامل مع الرجال، واكتفت بمراقبة العمل في هذا البيت الذي اختارته نائلة بنت عبد الله لها.

يمر السيد الآن بظروف غاية في القسوة، فقد كان يعمل موظفًا في بنك دوفارو، كان ماهرًا في الحسابات، لكنهم اكتشفوا منذ شهور قليلة أنه يتلاعب في حسابات العملاء ويسرق من أرصدتهم، فقد اشتكى أكثر من عميل أن رصيد حسابه يقل دون مبرر أو سبب، فراقبوا السيد وتأكدوا من سرقاته، فقبضوا عليه وسلموه للشرطة، ولم يخرج من السجن إلا منذ أيام قلائل، بدأها بالذهاب مع حسين ومنصور الشيخ للكومبكير.

صعد السيد سلالم بيته الكثيرة، ففوجئ بالطُرمة مقرفصة بجوار باب حجرته، وحسين يقف بجوارها يحدثها، فصاح مندهشًا:

- ماذا حدث؟

وقفت الطُرمة قائلة:

- تعبتنا منك لله.

فتح باب حجرته ودخلوا ثلاثتهم، قالت الطُرمة:

- سيدتي نائلة بنت عبد الله تريد مقابلتك.

- ماذا تريد مني؟

- لا أعلم.

- لكن يجب أن تسرع بالذهاب إليها.

- لكنني لا أعرف مكان بيتها.

- سأذهب بك إليها.

- متى؟

- في الغد، بعد العصر.

ضاق حسين بحديثهما، فقال:

- لقد تأخرت كثيرًا، ومضطر أن أترككما الآن.

وعاد حسين إلى بيته بشارع شجرة الدر، بينما اتفقت الطرمة مع السيد بأن يتقابلا في محطة الرمل عند العصر، حتى تكون نائلة قد استيقظت من نومها، فالطرمة تعرف أنها لا تصحو من نومها قبل العصر.

قضى السيد ليلته مؤرقًا، فمنذ أن خرج من السجن وهو لا يعمل، ونقوده كادت تنفد، حاول أن يعمل محاسبًا أو كاتبًا في أي بنك، أو حتى في مخبز، فلم يجد، فحمل صباح اليوم مائدة صغيرة ومقعدًا وأراد أن يضعهما أمام محكمة محرم بك، لكن الكتبة الذين يعملون هناك، رموا مائدته ومقعده، وأبعدوه عن المكان قائلين له:

- هي كانت ناقصاك؟!

وقرّر السيد أن يذهب إليهم صباح الغد أيضًا، سيقاومهم ويتحداهم.

حمل السيد في الصباح مائدته الصغيرة ومقعده وذهب إلى محكمة محرم بك، وضع المائدة قريبًا من الباب الكبير، وأخرج مطواه وأشهر نصلها وأرشقه في خشب المائدة، صائحًا وهو ينظر للكتبة الذين يجلسون حوله:

- من سيقترب مني سأطعنه بهذه المطوة.

وقفوا متحفزين، وأرادوا أن يفعلوا معه كما فعلوا بالأمس، لكنه قال:

- يا روح ما بعدك روح، وقد خرجت من السجن منذ أيام قلائل ولا أجد قوت يومي.

جلس الكتبة على مقاعدهم وتركوه يعمل.

اقترب بعضهم منه وحدثوه برفق، سألوه في بعض المسائل المتعلقة بالبنوك، فهو يعرفها جيدًا.

***

عند العصر جاءت الطرمة لبيته وسارت معه حتى موقف عربات الحنطور، وقالت للعربجي:

- محطة الرمل يا أسطى، عند جامع إبراهيم.

نظرت نائلة بنت عبد الله إلى السيد باهتمام، ورددت كلمات غير مفهومة، ثم امسكت الطرمة من يدها وابتعدت بها، لم يرها السيد وهي تعطيها الجنيهات الذهبية التي وعدتها بها، لكن السيد وجدها سعيدة وفرحة، فقد لوّحت لهما بيدها من بعيد وتمنت لهما ليلة هانئة وسعيدة.

***

ارتبط حسين بفردوس، تذهب إليه في شارع شجرة الدر، تمر من أمام القهوة التي يجلس عليها، وتبتعد عن المقاهي الكثيرة هناك، يتقابلان بعيدًا، يقف بها في ظلام شارع جانبي مظلم يتحدثان، يلح عليها حسين بأن تبتعد عن العمل بالكومبكير، وأن تتفرغ له وحده، وهي تفكر في هذا، لكن الوقت لم يحن بعد، فالطرمة أثرت عليها وأعطتها مالًا وبصمتها على أوراق، لو قدمتها للشرطة، ستسجنها بها، هكذ تدور الأمور هناك، خاصة مع الفتيات الجميلات مثل فردوس، كما أنها في حكم القانون ما زالت زوجة لشويحة، فهي تتقصى أخباره من

وقت لآخر، تسأل زبائن الكومبكير عنه، وقد رأته يومًا وهو يقود عربته الكارو قريبًا من مكان عملها في منطقة اللّبّان.

تنهّد حسين في أسى، فهو يتعذب لبعد فردوس عنه، كما أن مشاكل عمله زادت منذ أن بدأ العمل في كورنيش بحر الإسكندرية.

تذهب فردوس بعيدًا، تلوّح بيدها لحسين، تختفي بعيدًا عن الشارع الضيق المظلم، ويذهب حسين لمقابلة نائب الشعب محمد فرغلي، لقد سأل عن عنوانه، وحصل على موعد معه.

استقبله الرجل في بيته:

- أهلًا بك.

شرح حسين له الموقف، فهو يعرف كل شروط مشروع كورنيش بحر الإسكدرية، فقد تم الاتفاق على صنع بلوكات خرسانية مخرمة، بكل منها خرمين يمر بهما كمر حديد قطر كبير، لكن دونتمارو أمر العمال – الذين يوردهم حسين – بصنع الخرمين ووضع فيهما كمر من الخشب، كما أنه أمرهم باستخدام مياه البحر في تقليب المونة، والملح حتمًا سيفسد المونة، مِمّا يؤدي لتحلل البلوكات وهدم الأسوار في أماكن عدة.

قال حسين للنائب محمد فرغلي:

- أريد أن أنبّه إلى خطورة ذلك قبل أن يتهدّم السور كله.

فسأله محمد فرغلي:

- ولماذا أنت قلق من هذا؟

- أنا الذي أورّد العمال إليهم، ومن الممكن أن يتهموني بأنني الذي أمرت بذلك.

فوعد نائب الشعب بالبحث في هذا الأمر وتقديم استجواب في البرلمان بشأنه.

***

تغيّر حال السيد فهو يقيم بصفة دائمة في شقة نائلة بنت عبد الله، ترتاح هي في التعامل معه، فقد وفّر عليها عناء البحث عن رجل له مواصفات خاصة من وقتٍ لآخر.

لم يعد يذهب السيد إلى محكمة محرم بك حاملًا مائدته الصغيرة ومقعده وأوراقه، فنائلة لا تستطيع البعد عنه، وتنفذ له كل رغباته، ألحّ عليها بأن تتزوجه، لكنها ترفض هذا بإصرار، يخاف السيد من أن تجد رجلًا غيره، أو أجدر منه في هذا المجال، وقتها سترميه إلى الشارع، وسيعود لمائدته الصغيرة ومقعده وأوراقه ومشاكله مع الكتبة أمام محكمة محرم بك.

فكر السيد في طريقة يؤمّن بها مستقبله، تذكّر ما كان يفعله أيام كان موظفًا في بنك دوفارو، لماذا لا يفعل هذا مع عشيقته نائلة بنت عبد الله، خاصة أنها لا تعرف القراءة والكتابة.

طلب منها أن تؤجر له كازينو على البحر اشترته حديثًا، فبصمت على الورق وهي منتشية وسعيدة وقت تعامله معها، ذلك الكازينو غيّر السيد وجعله يركب سيارة ويطمح للتعامل مع امرأة أخرى غير نائلة بنت عبد الله، امرأة أكثر جمالًا وأقل عمرًا وحجمًا.

اكتشفت نائلة بعد شهور عديدة أن السيد قد تنكّر لها وخانها، فالأوراق التي بصمت عليها أوراق بيع وليست إيجارًا، كما أنها اكتشفت أنه على علاقة براقصة تعمل معه في الكازينو، صرخت، وأخذت تضرب صدره بقبضتي يديها وهي تسبه، ثم بكت منهارة.

***

تابع حسين تطورات الموقف في بناء كورنيش بحر الإسكندرية، علم أن المهندس المسئول اعترض على الاستلام، لكن إسماعيل صدقي باشا قبل المشروع على حالته هذه، وكانت مكافأته فيلًا كبيرة مجهزة في الزمالك مهداه من بنك دوفارو، وأن أجزاء كثيرة من الكورنيش قد تهدّمت، أخطرها ما حدث في منطقة الأنفوشي، فقد جلس عدد ليس بالقليل من الصيادين على شاطئ البحر، فانهار الكورنيش فجأة ومات البعض، وأصيب البعض.

فذهب حسين لبيت نائب الشعب محمد فرغلي وأخبره بهذه الأحداث، فقدّم النائب استجوابًا عنها في البرلمان، لكن إسماعيل صدقي كان قد ترك الوزارة.

***

تذهب الطرمة كالعادة إلى بيت سيدتها نائلة بنت عبد الله، قالت وهي حزينة:

- سأبلغك نبأ سيغضبك كثيرًا.

رمت نائلة ما كانت تمسكه بعيدًا، فقد تمنت لو صدمت به وجه الطرمة العجوز قائلة:

- قولي يا غراب البين.

- أبلغوني في المساء بموت أنور.

هبّت نائلة من مكانها وصرخت:

- مات أنور؟!

بكت ولطمت خديها، وارتدت فستانها الأسود الذي ترتديه في مثل هذه المناسبات، وأخذت الطرمة معها، ذهبت إلى اللّبان، وجدت الزقاق الضيق الذي تربّت فيه حزينًا ومكتئبًا، والرجال الذين يسكنون البيت يجلسون، بعضهم يجلس على أفريز الشارع يبكي، والبعض يجلس على المقاعد.

أخرجت الطرمة نقودًا كثيرة قائلة:

- الست أمرت بإقامة أكبر سرادق من أجله.

صعدت نائلة للبيت، أخذت تطوف في حجراته الصغيرة، تتذكّر أيامها فيه.

لم تترك الزقاق الضيق إلا في آخر الليل.

دائرة اللّبّان عام 1947

يحكون أن عضو مجلس النواب عن دائرة اللّبّان بالإسكندرية، التي تشمل الدّعارة في منطقتي كومبكير والهماميل، قد استاء من انتشار البغاء في دائرته الانتخابية، فتقدّم بأكثر من طلب في البرلمان بإلغاء الدّعارة في مصر كلها، فعارضه البعض، خاصة عضو برلمان سكندري، حذّر من منع البغاء في مصر، فذلك سيؤدي لمخاطر جمة، أولها أنه سينتشر في كل مكان في مصر، ثانيها ستنتشر الأمراض المعدية والسرية؛ لأن العاهرات سيعملن دون كشف طبي ورعاية صحية، فخرج عضو مجلس النواب عن دائرة اللّبّان بالإسكندرية من مقر البرلمان في القاهرة إلى وزارة الشئون الاجتماعية القريبة من مبنى البرلمان وطلب مقابلة جلال فهيم باشا وزير الشئون الاجتماعية، فرحّب الباشا به، فقال النائب:

- إنني نائب في البرلمان من الإسكندرية وللأسف تقع في دائرتي الانتخابية منطقتا دعارة هما كومبكير والهماميل، وقد فشلت في منع هذه الرذيلة، فاكتفيت في مقاومتها بإقامة مشاريع اجتماعية وإنسانية قد تخفّف من أثر هذا السوء.

أومأ الباشا برأسه فهو إلى الآن لا يعرف ما يقصده هذا النائب السكندري من زيارته.

وأكمل النائب:

- وقد جمعت أموالًا من تجار منطقتي - فهي تجمع بجانب هذه الموبقات، ورش الحدادة والسباكة - جمعت أموالًا لبناء مدرسة تنفع أهل الدائرة التي أمثلها.

قال الباشا: عظيم، عظيم.

وانتظر أن يصل النائب إلى ما يريده منه بزيارته المفاجئة هذه، فقال:

- وهذه المشاريع الاجتماعية من صميم عمل سيادتكم.

- فعلًا، نحن نسعى إلى انتشار ذلك في مصر كلها.

- لذا، أدعو سيادتك أن تأتي للإسكندرية وتفتتح هذه المدرسة، وبعض المشاريع الاجتماعية الأخرى.

قام الباشا منهيًا الزيارة قائلًا:

- أنا لا أتأخر عن مساعدة مثل هذه الأعمال الإنسانية، حدّد مع مدير مكتبي الموعد، وسوف أحضر إليكم في الإسكندرية.

***

استعدّ عضو مجلس النواب عن دائرة اللّبّان لاستقبال الباشا جلال فهيم وزير الشئون الاجتماعية، فتحدّث مع معارفه وأهل دائرته للاستعداد لاستقباله.

ذهب النائب لاستقباله بسيارته أمام محطة قطار الإسكندرية.

جاء سيادة الوزير ومعه عدد ليس بالقليل من مساعديه، فركب الباشا بجوار النائب، وتوزّع مرافقوه على السيارات الأخرى.

وعندما اقترب الموكب من منطقة اللّبّان، توقّفت السيارة التي يركبها الباشا الوزير ونائب الشعب أمام عربة حنطور.

فقال الباشا الوزير معترضًا:

- لماذا الحنطور، السيارة أفضل.

- أهالي الدائرة يريدون الاحتفال بقدوم سيادتك.

فنزل الباشا الوزير ومدير مكتبه، الذي يرافقه في كل مكان يذهب إليه، وجلسا في مواجهة العربة، بينما النائب جلس بجوار الحوذي وتحدث معه في صوتٍ خافتٍ:

- أريد أن يحتفل أهالي الدائرة بسيادة الباشا الوزير.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن تسير على مهلك، أريد أن يراه كل سكان الدائرة.

يعرف الحوذي كيف يتعامل مع حصانه في مثل هذه المواقف، فقد اشترك كثيرًا في زفة العريس والعروسة، فكان يسير على مهلٍ وأناةٍ.

دخلت العربة منطقة الكومبكير، سيدات مصبوغات تقفن على ناصية الشوارع، تنتظر الزبائن، فنظرت لهذه العربة التي كثيرًا ما تعاملوا مع قائدها، فموقف عربات الحنطور قريب جدًا من أماكن عملهن.

سيادة الباشا الوزير يبدو من هيئته أنه الأهم والأغنى، فاقتربت النساء منه، واحدة تمكنت من القفز للعربة، خاصة أن السائق توقُف أمامها عندما وجدها راغبة في الوصول إلى الباشا، وجاءت امرأة من الناحية الأخرى، لمست ملابس الباشا.

توقُف الحوذي، فامتلأت العربة بالنساء المصبوغات، كل واحدة تعرض على الباشا بضاعتها، شدوا قميصه، أخرجوه من بنطلونه، وتطاير طربوشه في الهواء، وقع على الأرض ... تشاجرت النساء، كل واحدة ترغب في الفوز به، فليس في كل يومٍ يأتي إليهن رجلٌ بهذا القدر والأهمية، فصاح الباشا الوزير غاضبًا وسائًا:

- ما هذا الذي يحدث؟!

فنظر النائب خلفه مبتسمًا ولم يرد، لكن الباشا الوزير شده من ملابسه في عنف:

- ما الذي فعلته بي؟

- لا شيء، هذه هي الدعارة التي توافقون على استمرارها يا باشا.

صاح الباشا الوزير في مدير مكتبه، بأن يأتي بسيارته لكي يبتعد عن هذا المكان القذر.

وعاد الباشا الوزير إلى القاهرة هو وكل مساعدوه، وسعى لاتخاذ قرار بإلغاء الدعارة في مصر.

***

انتشرت الدعارة في أماكن عدة بالإسكندرية، خاصة في منطقة اللبّان، استطاع البعض تكوين دوائر منظمة وكبيرة للدعارة، وعملت بعضهن وحدها، فقد بحثت تفاحة، التي تسكن قريبًا من حدائق الشلالات، عن مصدر رزقٍ فلم تجد، فقد تبدّدت إمبراطورية نائلة بنت عبد الله، وتفتت عالم الكومبكير، انتشر في أماكن كثيرة في الإسكندرية، ولم يستعن أحد بتفاحة، فمارست عملها بجهودها الذاتية، دارت في منطقة الشلالات، القريبة من بيتها، وعرضت بضاعتها، كان مكانها الدائم خلف ضريح سيدي الزهري، وكانت تقبل بقروش قليلة، وتسببت في مرض كثير من الرجال الذين تعاملوا معها، بينما انتقلت فردوس إلى بيت بشارع الإمام مالك يديره رجل، اختار عددًا قليلًا من العاهرات اللائي كن يعملن مع نائلة بنت عبد الله، وافتتح هذا المكان السري، فقد انشغلت نائلة بالأمراض التي تطاردها الآن، الضغط والسكر والقلب، وآلام القرحة التي حدثها عنها صديقها المثقف والتي كانت تعاني منها أيضًا أخت نابليون، فاكتفت بالعيش من إيراد عماراتها الكثيرة في الإسكندرية، فقد استولى السيد عشيقها على كثير من ممتلكاتها، فهي كانت تلحُ في طلب مقابلته، وكان يتهرّب منها، فكانت

تخضع إليه رغم كل ما فعله بها، قالت له وهي تنام تحته:

- أنا لست مندهشة لما حلّ بي من خراب، فقد كنت أنتظر وقوعه، فكل من عمل في هذه المهنة يعلم أن نهايتها مثل بدايتها، كل من عمل بها تبددت أمواله وممتلكاته قبل أن يموت، فهي مهنة ملعونة.

***

يجلس حسين على قهوة أمام هذا البيت السري، ينتظر خروج فردوس، يسير بجوارها، لقد أصرّ على أن يتزوجها، وهي وافقت بعد أن تخلّصت من قبضة نائلة بنت عبد الله، بالديون الموقعة مع الطرمة مندوبتها، خاصة أن الطرمة غابت عدة أيام عن الحضور لمبنى الدعارة الذي كانت تديره، وعندما ذهبوا للسؤال عنها، دقُّوا باب حجرتها في البيت المواجه لقهوة الشواذ، فلم ترد، فاستعانوا ببعض جيرانها ليساعدوهم في كسر بابها، فوجدوها ميتة منذ عدة أيام، كما أن فردوس تأكّدت من موت شويحة زوجها السابق، فقد قابلت امرأة كانت تسكن قريبة منها، سألتها عن شويحة، فقالت المرأة:

- ظننتك تعرفين بموته، لقد مات من حسرته لفراقك.

***

سكنت فردوس في شقة خلف سنترال محطة مصر، أنجبت من حسين ابنتين، طوال وعراض مثلها، ولهما فم واسع ورقبة طويلة مثلها.

تزوّجت الأولى من علي عشرة – أشهر مؤجر دراجات في الإسكندرية كلها – كان يؤجرها باليوم والأكثر، أنجبت له سبع بنات كلهن مثلها - طوال وعراض- ولهن فم واسع ورقبة طويلة.

إحداهن تزوّجت من لاعب كرة مشهور في نادي الاتحاد السكندري، وعندما مات علي عشرة، أدارت هي دكان زوجها، كانت تقف فيه منذ الصباح وإلى الليل، أدارته بمهارة كما كان يديره زوجها، فتقرّب منها جارها حلمي صاحب دكان الخردوات، فأنجبت منه فتاة واحدة، ثم توقّفت عن الإنجاب.

أما أختها الأصغر فقد تزوّجت من موظف في سنترال محطة مصر، كان يدخل من الباب الخلفي، الذي يدخل منه الصنايعية، وهو مواجه لدكان علي عشرة زوج أختها مؤجر الدراجات فأعجب بها، أنجبت منه فتاة، لكنها رأت رئيسه المهندس في السنترال، فقرّرت أن تتزوجه، وتمّ لها هذا، فقد ألحّت على زوجها حتى غضب وطلقها بعد أن أخذ ابنته منها، فأنجبت من رئيسه المهندس ابنة أخرى أيضًا.